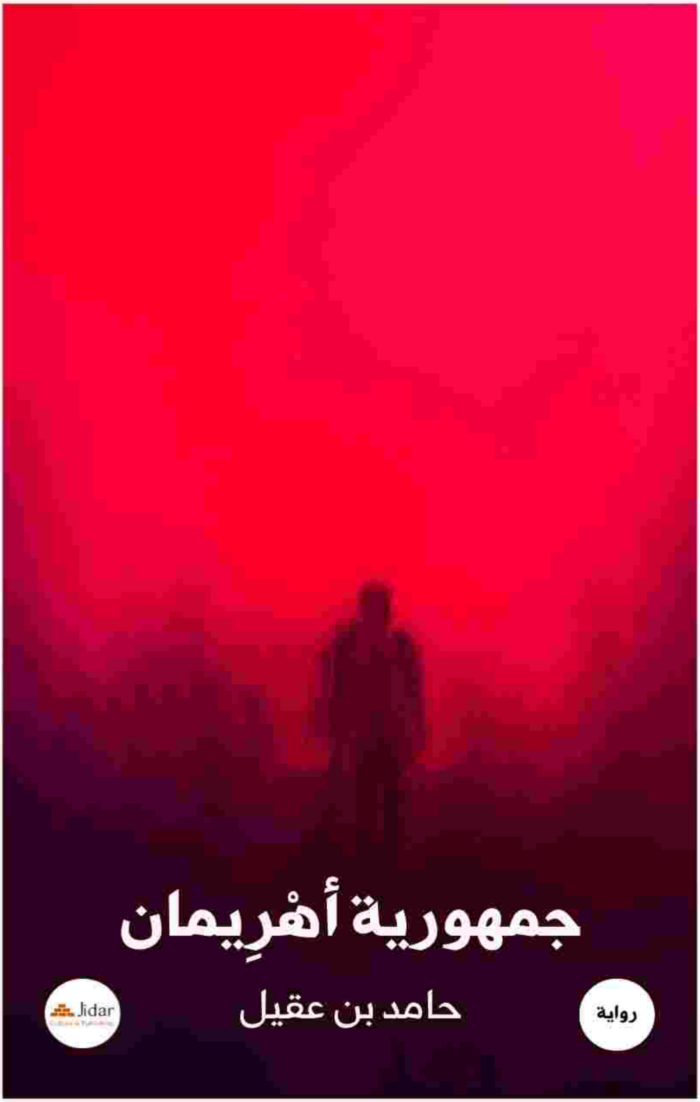


جمهورية أهْرِيمان

حامد بن عقيل

رواية

Jidar

حامد بن عقيل

جمهورية أَهْرِيمان

رواية

الكتاب: **جمهورية أَهْرِيمان**

المؤلف: **حامد بن عقيل**

رو **اية** ديستوبيا

الناشر:

جدار للثقافة والنشر | السويد - مالمو

www.jidar.net | info@jidar.net

الطبعة الأولى 2024م

تصميم الغلاف: جدار للحلول المستدامة

THE REPUBLIC OF AHRIMAN

HAMED BIN AQEEL

Novel

. Publisher: Jidar for Culture & Publishing

First Edition: 2024

Cover Design: Jidar for Sustainable Solutions

ISBN: 978-1-4467-3719-4

للحصول على نسخة ورقية انقر: هنا

لا يستنير الإنسان بتخيل أشكال النور،

بل بإدراكه لمصدر الظلام

كارل يونغ

وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّامُوسِيُّونَ، لأَنَّكُمْ أَخَذْتُمْ مِفْتَاحَ ٱلْمَعْرِفَةِ. مَا دَخَلْتُمْ أَنْتُمْ، وَٱلدَّاخِلُونَ مَنَعْتُمُوهُمْ

إنجيل لوقا 11: 52

إلى المخرج المسرحي السكندري

أحمد صالح

ثم

سلاماً لروحي:

ريحانة جباري ملايرى

وعبير قاسم حمزة الجنابي

[1]

ربما كانت العاشرة صباحاً، ما بين التاسعة والنصف والعاشرة صباحاً؛ الموعد المعتاد لاستيقاظي كلّ يوم. في حُلمٍ بعيدٍ، كأنه ينبعث من غَيَابَةِ جُبٍّ، رأيتُني، في الثانية عشرة من عمري، أقفُ وسطَ حديقةٍ أشجارها معمّرةٍ غير متناسقة وذات جذوع أُرجوانية ضخمة متشققة، أمشي وَجِلاً، أصطدم بأشياء غير مرئية ثم أختبئُ في شقوق الأشجار. لا أدري إن كنتُ أهربُ من شيءٍ ما، لم أر أحداً يطاردني. تتوقفُ أحلامي عند عمر الثانية عشرة، ما قبل ثلاثين عاماً، وكأنني لم أعد أجد ما يستحق أن أحلم به بعد هذا العمر. ربما مرةً واحدةً حلمتُ أنني رجلٌ يمر بمرحلة البلوغ، ينفجر وحيداً، وفي ذات الحديقة الأُرجوانية، لكنني في تلك المرة الوحيدة لم أكن أهربُ من شيء، بقيتُ ملتصقاً بجذع شجرة متصدّع، وتناهتْ إليَّ أصواتٌ لم أميز منها سوى صوتِ أمّي:

- "إسِاج"، أين أنت؟

...

يحدثُ كثيراً أن أحاول، حال استيقاظي، تذكر أين أنا؟ أيُّ يومٍ هذا الذي استيقظتُ فيه؟ وأيُّ تاريخٍ يحمل؟ أبقى لأكثر من نصف ساعة ممدداً في سريري، ثم أجلسُ على حافّته، أعيدُ استيعابَ ما يُحيطُ بي، لأتهادى بعدها إلى الصالة. تعودتُ أن أجدها جالسةً هناك في انتظار

استيقاظي، كما تعودتُ منها ألا ترد على تحيتي كل صباح، تكتفي بالتفاتةٍ فقط:

- نهاركِ جميل.

تبقى صامتةً، فأناديها، وكأنني أريد الاطمئنان إلى أنها لاتزال تتنفس:

- سافو

فلا تجيبُ. أعيدُ النداء باسمها الجديد:

- حسناء.

هنا تلتفتْ، تنظر نحوي وهي تتألّمُ، ولكنها لا تجيبُ أيضاً.

في السنوات الأخيرة أصبحتْ شبه عاجزةٍ، تتحرك بصعوبة، ولا تغادر منزلنا إلا إلى الشرفة الأمامية، أو النزول إلى باحةٍ مقابل العمارة السكنية التي تُحيط بها غابات من عمائر إسمنتية تحجب رؤيةَ أيِّ شيءٍ طبيعي، وتحجب الشمسَ والهواء.

...

ورثتُ "حسناءَ" عن أمي- إذا جاز التعبير- فهي خادمتها. عندما كنتُ طفلاً في الثالثة من عمري جاءتْ رفقة أمي إلى البيت لرعايتي، وحين بلغتُ العاشرة أطلعتني أمي على جانبٍ من قصة الوافدة التي أصبحتْ جزءاً من عائلتنا. بدأتْ العمل لدى والدتي وهي شابة في السابعة والعشرين من

عمرها، كانتْ قبيحة بشكل لا يصدّق، طويلة بجسم ممتلئ قليلاً ووجه دائري أبيض وعينين عسليتين واسعتين، ويزيدها شعرها الأسود الفاحم، الذي يتجاوز عجيزتها حين تتركه مرسلاً، قبحاً إلى قبحها. وهي إلى ذلك تحمل هذا الاسم "حسناء"، الذي يزيدُ قبحه من قبح منظرها الظاهر لكل عين. لكنها جليسةٌ مخلصة ومتفانية، حصلتْ على القليل من التعليم في "دار اللقطاء الوطنية التاسعة" قبل أن تتقدم أمُها بطلبٍ رسمي لإخراجها من دار اللقطاء، ثم تكفَّلتْ برعايتها في منزلها الكائن في قرية "عاهرات" القريبة من مدينتنا، أرادتْ الأم أن تنشأ ابنتُها قريبةً منها، ورغبتْ في أن تساعدها على رعاية وزراعة أرضهم الصغيرة. كانتْ في الثانية عشرة من عمرها حين تركتْ دار اللقطاء الوطنية، وهو ما أسعدها حقاً، كما أخبرتني ذاتَ يوم، فقد كانتْ عرضةً للتنمُّر من زملائها في تلك الدار لقبح منظرها، إذ لم تكن تتميز بأي عاهة أو تشوه يجعلها مقبولةً في محيطها من لقطاء الدار، وهي إلى ذلك لم تكن محبةً للتعليم.

الشيءُ الوحيدُ الذي لم تكن تقبله والدتي هو قيام "حسناء" بإعداد وتقديم الطعام لنا. من الواضح أنها مختلفةٌ عنّا حتى في طريقة إعدادها للطعام؛ تتناول البيضَ أثناء وجبة الإفطار، والذي لم نكن نعلم من أين تحصل عليه، وفي وجبتي الغداء والعشاء كانتْ تحصل، من مصادرها الخاصة، على مكوناتٍ أخرى غير مستساغة، كأن تتناول شطيرة الدجاج، أو شطائر بلحم الأبقار.

مضتْ سنواتٌ قبل أن أفهم من أمي أنها تستخدمها بدافع الشفقة، وأنها تعطيها حريةً إضافيةً لممارسةِ طقوسِها ومعتقداتِها، وأنها لا تجد مشكلة في قبول عاداتِها الشاذة ما دامتْ لا تؤثر على العائلة.

تُوفيتْ أمي قبل ثلاثة عشر عاماً، وبقيتْ "حسناء" في عهدتي. بقي الوضع على ما هو عليه، وهي الآن في السادسة والستين من عمرها، لم تكن عاهرةً من قبلُ لأيِّ رجل، لهذا هي الآن بكرٌ في نهاية خريف العمر، بقي من قبحها وجهها الأبيضُ وقامتها الطويلة، بينما انحسر شعرها إلى كتفيها، وبقيتْ على عاداتها الغريبة في الأكل، وعادتها، المقززة، في الاستحمام بشكل يومي.

...

جلستُ مقابل التلفزيون، في النصف ساعة التي تلتْ استيقاظي وتململي في السرير استوعبتُ إلى أيِّ مدى سيكون يومي مختلفاً، تذكرتُ بعضاً مما دار في البرامج الحوارية حولي ليلة أمس، وتوقعتُ ما ستؤول إليه الأمور على صفحاتِ الجرائد اليوم، ففي برنامج "قَيْحُ المدينة" تحديداً كانتْ المذيعة الشهيرة "بنت زحالف" تصبُّ سيلَ شتائمِها بطرقها الملتوية على "عبارتي" المرفوضة كما قالتْ عنها، وهو ما نقله إليّ بعضُ أصدقائي النَّمامين، وهم من نقل إلى مسامعي قولَها: "الدكتور إسِاج، أحد أعداء الوطن، فجمهوريتنا في سعيها لإظهار صورتها المتحضرة أمام العالم تصطدم بأمثال هذا الدكتور من خلال تصريحاته غير المسؤولة

ومهاجمته مؤسسة الزواج يوم أمس في افتتاحه لمقر الهيئة الوطنية لتنمية الدعارة، إن الدكتور إسِاج يقدم جمهوريتنا إلى العالم بوصفها بلاداً رجعية ولا تدعم حقوق الأقليات"، ونقلوا أشياء أخرى من قبيل تذكيرها للمشاهدين بخطابي العام الماضي أمام الجمعية العمومية لحزب "قلاقل" الذي أنتمي إليه. كنتُ مرشحاً حينذاك لأن أكون نائباً لمحافظ مدينة "بيلونا" أكبر مدن الجمهورية وعاصمتها، أشرتُ في خطابي يومها إلى "ما تمر به بلادنا وهويتنا القومية من تحدياتٍ ممثلةً في ترك الدولة لجماعات الضغط دون أن تسن قوانين لتؤطر أعمالها من خلال المؤسسات السياسية والاجتماعية وحتى الإعلامية". كلامٌ عام يلقيه أي مرشح في أي انتخابات دون أن يقف أمامه أحد أو يعيره اهتماماً، لكن السيدة "بنت زحالف" استغلته لتهاجمني بلا هوادة لأسبوع كامل، وألّبتْ بقية وسائلِ الإعلامِ المطبوعة والمسموعة والمرئية، ولم تنتهِ حملتُها إلا بعد تقديمي اعتذاراً رسمياً عبر وسائل الإعلام لكل جماعات الضغط والأوغاد القائمين عليها، بل والاعتذار لكل المنتمين إليها. هذه المذيعة، بالذات، كانتْ تناصبني العداء دون سببٍ واضح، مستغلةً القبول الذي تجده لدى المشاهدين بسبب الموضوعاتِ الحساسةِ التي تطرحها، إضافة إلى ما تتميز به من جمال؛ فهي قصيرةٌ مكتنزةٌ، تمتلك وجهاً فاتناً ببشرته الصدفية، وبشفةٍ عُليا متورمة.

أخذتُ أقلبُ القنوات، حتى رأيتُ شعار قناة "قِيَم بيلونا"، توقفتُ، وأبقيتُ الصوت منخفضاً، إعادة لبرنامج "قيح المدينة"، كانتْ "بنت زحالف" تجلسُ أمام اثنين من المهتمين بالشأن العام، أحدهما الدكتور "أسموديوس" أستاذ العلوم الإنسانية والفلسفة القذرة في جامعة لُوسيفْر، والآخر لا أعرفه، ولستُ مهتمًا بمعرفته. لهذا أبقيتُ الصوتَ منخفضاً وتأملتُ أناقة السيدة المحاورة "بنت زحالف" التي تلبس بلوزة جينز زرقاء مخططة بالأخضر، وتنورة من قماش باللون البرتقالي، وتظهر بمظهر جديد من خلال صبغة شعرها ذات اللون الأصفر الفسفوري، كان يتناسب تماماً مع ديكورات الاستديو الرمادية ومقاعده ذات اللون الأحمر. التفتُ فإذا "حسناء" تتململ في جلستها:

- هل تشعرين بألم؟
- لا أدري.

قالتْ، وأضافتْ:

- هناك ألمٌ ما في هذه الحجرة، ربما كان ملتصقاً بي، لا أدري، لكنني أشعر بأنه قريب منّي.

...

رأيتُ، على طاولة صغيرة بجوار شاشة التلفزيون، ظرفاً أحمر لا يتجاوز حجمه سبابة إصبع. كان من ضمن أشياء كثيرة تركتها عاهرتي

السابقة "نُكْرَان" عندما غادرتنا قبل عام تقريباً، مددتُ يدي وأخذتُ أتأمل منظر "الذبابة الحمراء" المرسومة عليه، والمكتوب تحتها مباشرة بخط صغير لا يكادُ يُرى: "مسحوق الذبابة الحمراء"، فضضتُه، وانحنيتُ على الطاولة ورحتُ أشمُّهُ ببطء. كنتُ أدعك أنفي وأنا أتجه نحو باب شقتي لتفقد الصحف، وجدتُ الصحيفتين اللتين أشترك فيهما قد وُضعتْا أمام الباب، أخذتُهما وعدتُ مواجها التلفزيون حيث كنتُ جالساً. تصفحتُ، أولاً، صحيفة "أضغاث" الوطنية، وهي الصوت الرسمي الناطق باسم حكومة "جمهورية أَهْرِيمان"، كانتْ الصفحة الأولى خاصةً، كالعادة، بتغطية أخبار "بعلزبول" رئيس الجمهورية، وعاهرته الجديدة "مومس"، وحاشيته. أما الصفحة الأخيرة فكانتْ حكراً على أعضاء الحكومة، وعاهراتهم، وبعض وجهاء المجتمع، ولاسيما صاحب مؤسسة الإقراض الربوي الوطنية رجل الأعمال "لوياثان" وعاهراته. في الصفحة الثالثة وجدتُ مقالاً مقتضباً بعنوان: "د. إسِاج وقِيم المدينة"، كان كاتبه رئيس تحرير الصحيفة الدكتور "داسم" زميلي أيام تدريسي في جامعة لوسيفْر، وعضو في حزب قلاقل المعارض الذي أنتمي إليه، جاء في المقال: "وبالنظر إلى ما تمر به جمهوريتنا من تحدياتٍ فإننا ربما نجد من يضع ما قاله الدكتور "إسِاج"، في افتتاحه أمس لمقر الهيئة الوطنية لتنمية الدعارة، خارج سياقه. فما قاله الدكتور كان مجرد إشادة بما تمر به بلادنا وبغاياها من ازدهار يثبت أن دعوات الشذوذ التي ينادي بها أعضاء جمعية "أنصار الزواج" ليستْ سوى زوبعة ستمر ولن يبقى لها أثر. وهي الإشارة التي لم

يُوفَّقْ فيها الدكتور حين وصف أتباع جمعية "أنصار الزواج" بالشذوذ، لكن، والدكتور "إسِاج" معروف بانتمائه إلى حزب يؤيد القيم الوطنية السامية، وأحد أهم المدافعين عن قيم البغاء ورفاهية اللقطاء والقوادين بوصفهم عماد هذا الوطن وثروته الحقيقية، خانه التعبير بإضافة هذه المفردة إلى خطابه، والتي ستكون مناسبة ليلتقطها المدافعون عن حقوق الأقليات بهدف النيل منه". أعجبني ما ورد في المقال من لغة متوازنة، ووجدتني أتفق مع الدكتور "داسم" في كوني ربما كنتُ متطرفاً بعض الشيء في وصف جمعية "أنصار الزواج" بالشذوذ. لا بد أنه يعي مقاصدي بوضوح، وهو الذي حين التحق بكلية العلوم الإنسانية والفلسفة القذرة كنتُ أنا رئيس قسم الدراسات العليا فيها، وقد نشأتْ بيننا صداقة امتدتْ لقرابة عقد من الزمان قبل أن أغادر الجامعة وأتفرغ للعمل السياسي.

الصحيفة الأخرى كانتْ إحدى أهم صحف التابلويد في العاصمة، صحيفة "قذارات"، وتتمتع بشعبية كبيرة بين أوساط القراء في الوسطين السياسي والاجتماعي. كنتُ، كما هو متوقع، المادة الرئيسة، اختاروا لي صورةً شعرتُ بالارتياح لوجودها على الصفحة الأولى لأنها تظهرني بمظهر أنيق، كما شعرتُ بامتنان لرئيس تحرير الصحيفة الأستاذ "مقلاص"، العضو في حزب "قلاقل"، والذي سبق أن التقيتُه أكثر من مرّة في اجتماعات الحزب، لكن لا تربطني به علاقة أكثر من مجرد معرفة بسيطة وأحاديث عامة، التقطَ صورتي، التي تزين الصفحة الأولى، أحدُ مصوري

الصحيفة قبل سبعة أشهر في حفلٍ لجمع التبرعات لصالح مؤسسة "حماية العقوق" الخيرية، أظهر فيها بقميصٍ أصفرَ منقّط باللون البني، وربطة عنق وردية، وجاكيت أخضر تميزه الأزرار الذهبية الكبيرة، وبنطلون رمادي نُقشتْ دوائر زرقاء على واجهته الأمامية من الخصر وحتى منتصف الساق، وبجزمة حمراء تُظهر طرفاً من الجوارب البيضاء القطنية التي أرتديها، كانتْ الصورةُ كاملةً على الصفحة الأولى، وكُتب أعلاها بخطٍ عريض: "الدكتور العنصري" ثم إشارة إلى أن التغطية ستكون في الصفحة (32) أي الأخيرة. حين قلَبتُ الصحيفة وجدتها تفرد لي الصفحة الأخيرة كاملة، وتتحدث بإسهاب حول ما قلته في احتفال الأمس، مقالان بعنوانين متجانسين على يمين ويسار الصفحة: "ذهنية الاضطهاد"، و"العقل الرجعي لنائب المحافظ"، ثم لقاء مع رئيس جمعية "أنصار الزواج" الذي اختاروا من حديثه عنواناً رئيسياً: "على الجميع احترام حقوق الأقليات في جمهوريتنا المتحضرة"، وآخر فرعياً جاء فيه: "حسناء.. أحد مؤسسي جمعيتنا رعتها والدة الدكتور "إسِاج" وواصل رعايتها ونحن نقدر ذلك، ولكن..". بدتْ لي العناوين مثيرة، لكن العنوان الذي جاء في آخر موضوعات الصفحة كان مستفزاً، وهو يسير على نهج السيدة "بنت زحالف" التي تحب نبش الماضي في برنامجها الحِواري، كان العنوان طويلاً وأُخذ على مساحة خمسة أعمده: "د إسِاج بين الأمس واليوم: من التعريض بجماعات الضغط إلى شذوذ الأقليات"، كانتْ فكرة الموضوع قائمة على رسم جرافيك يوضح أبرز محطات حياتي، ولكنه يبرز

بشكل عام حادثة العام الماضي حول جماعات الضغط وحادثة الأمس حول المفردة المشؤومة "شذوذ" التي نَعَتُّ بها جماعة أنصار الزواج. تصفحتُ النقاط الرئيسة التي تناولها كاتب الموضوع، ثم تأملتُ صورتي المرسومة بشكل ساخر وتظهرني بأذنين عاديتين وأسنان أمامية متراصة، ثم عدتُ لقراءة المقال الذي جاء إلى يسار الصفحة: "العقل الرجعي لنائب المحافظ" لأنَّ كاتبته الأستاذة "أراجيف" إحدى تلميذاتي، سابقاً، في كلية العلوم الإنسانية والفلسفة القذرة. بدأتْ الكاتبة مقالتها بحديثٍ مسهب عن قيم الجمهورية مدعماً ببعض عباراتٍ مأخوذة من خطب مؤسسها "أهريمان"، ومستشهدة بالدستور الوطني المستمد من كتاب "أخلاق الجمهورية العرجاء" لمرشد الوطن "ساطان" -على روحه الضياء- ثم تعرج لنقل مختصر لعبارتي، المقصودة بحسب ما ذهَبَتْ إليه الكاتبة، لتختم مقالتها بالاستنتاجات: "وإن كانتْ هذه المقولة صادرة عن نائب المحافظ، وأستاذ الفلسفة الأخلاقية القذرة السابق في جامعتنا الوطنية، فإنها لا تؤول على أنها كلمةٌ عفوية أو إشارةٌ غير مقصودة، بل هي استجابة واعية لرجل يدرك خطواته القادمة، ويسعى لبناء قاعدة جماهيرية لتكون مُعيناً له في انتخابات حزبه المعارض ذي الشعبية المتوسطة ليقفز إلى رئاسة الحزب، ثم لينافس على منصب محافظ مدينة "بيلونا". إلا أننا يجب ألا نغفل عن أنه، في منصبه السياسي هذا، يُعدّ مرآة لقيم الجمهورية، وصوتاً يجب أن يتبنى ما نشأتْ من أجل الدفاع عنه مؤسساتُنا وأولها قيمة قبول الآخر وحماية الأقليات حتى وإن شكلوا تهديداً لمعتقدات البعض، أو رأوا

فيه تقويضاً للمنجز الوطني، كل هذا لا يجعل من أي منصب سياسي مكاناً يحتله من يؤمنون بقيم التخلف والرجعية".

خرجتُ من المقالة خالي الوفاض، هل كانتْ تهاجمني؟ هل كانتْ تقف إلى جانبي وتقدم المبرراتِ لما قلتُه بطريقة غير مباشرة؟، هل كانت تؤلب الرأي العام ضدي؟، أم أنها أرادتْ أن تبيّن خطورة أن أخلط بين معتقداتي الشخصية وبين مكانتي السياسية والحزبية؟ أو أنها ربما أرادتْ تنبيهي، فحسب، إلى أثر تصريحي على صورة الوطن في وسائل الإعلام العالمية؟

ما لفتْ نظري، حقيقةً، هو لغتها القوية وأسلوبها الواضح في تسجيل رأي يرفض ما قلتُه بالأمس، ولكنه لا يُعرِّض بي شخصياً أو يحاول تصفية خلافاتٍ قديمة معي.

وضعتُ الصحيفة، وقلتُ لحسناء وأنا أحاول مدّ أطرافي إلى أقصى درجة ممكنة لأبثّ النشاط في جسدي:

- رئيس جمعية "أنصار الزواج" يذكُركِ في الصفحة الأخيرة.

حملتُ الصحيفة من جديد ومددتُها إليها، فتناولتها بصعوبة، ثم وضعتْ نظارة القراءة وبدأتْ تقرأ. عدتُ بدوري لمشاهدة التلفزيون، انتهى برنامج "قيح المدينة"، وبدأتْ القناة تبثُ تقريراً عن منجزات حكومة "بعلزبول" تمهيداً لحشد تأييد شعبي وبرلماني لتمرير التغييرات التي يعتزم إجراؤها على بعض مواد الدستور، لم أكن مهتماً، فالتعديلاتُ ستُقرّ على

أية حال، بحشد مؤيد أو بدون، لهذا أخذتُ أقلِّب القنوات بلا هدف، وأفكّر في "حسناء" التي لم تختلف روايتُها لحكايتها الخاصة عن حكاية أمي التي أخبرتني بها وأنا في العاشرة من عمري:

- "حسناء" يا بنيّ من سكّان قرية مجاورة لمدينتنا، حاول ابن خالتها أن يغتصبها أثناء عملها وحيدة في حقل صغير تعود ملكيته لأمها، كانت في الثانية والعشرين، ولا أدري كيف رَغِبَ فيها، فلا آفة ولا عاهة تميزها فتجعلها تستهويه! هي، كما تراه أمامك، فتاة شديدة القبح. رغم هذا أراد ابن خالتها اغتصابَها لكنها قاومتْهُ وهربتْ، هرعتْ إلى أمها لتستنجد بها، لكنها لم تلبث أن اكتشفتْ، لاحقاً، أن أمها كانت متواطئة مع المغتصب، أرادتْ لابنتها ألا تتجاوز الثانية والعشرين وهي بكر، إن بقيت بكراً؛ من سيرغب فيها حينئذٍ من الرجال! بعد ذلك أضحتْ سخرية أهل قرية "عاهرات" ونبذهم إلى درجة أنهم كانوا يصفونها بأنها شريفة. لم تكن مصائبها تقتصر على عزوف أي رجل في القرية عن اتخاذها عاهرته فقط، ولا أنها تجاوزت الثانية والعشرين ولما تزل بكراً، ولا أنها خالية من أي عاهة لتميزها ما قد يجعل رجال وشباب القرية يميلون إليها، ولكنها فوق هذا كله..

تصمتُ أمي، ثم تضيف هامسةً وكأنها تفجِّر قنبلة:

- حسناء يا ولدي معروفٌ اسم والدها. نعم، فلها أبٌ معروف، المسكينة ليستْ لقيطةً كبقية البشر في قريتها، ما جعلها منبوذةً حتى من نساء القرية.

مرّتْ السنوات التي تلتْ تلك الحادثة على حسناء ثقيلة، حتى تمكنتْ من الهروب واللجوء إلى مدينة "بيلونا". وهنا أخذتْ تبحثُ عن عمل لكنها لم توفّق، إذ كيف يمكن أن يتصور عقلٌ قبول صاحب عمل أن يوظف فتاة ليس لها من محيطها إلا اسمها: "سافو"، والذي غيّرته، لاحقاً، واختارتْ اسماً بشعاً يتناسب مع هيئتها وحياتها البائسة، أصبحتْ تحمل اسماً من اختيارها: "حسناء"، صارت تتسول في شوارع بيلونا حتى صادفها عاملٌ في مطعم "طحالب" الشهير وسط المدينة، كان يشاهدها كلَّ يوم وهو ماضٍ في طريقه إلى عمله، فقرر أن يقدمها إلى ربّ عمله الذي أشفق عليها، بدوره، فوافق على أن تعمل لديه بشرطين: أن يضمنها العامل الذي رشحها للعمل في تلك الوظيفة، وأن تعمل في مهام مساندة في المطبخ الداخلي، فليس من الوارد أن يتركها صاحب المطعم تظهر أمام الزبائن بمنظرها الكريه فينفرون منها وبالتالي من مطعمه.

تكمل "حسناء" الحكاية، بعد سنوات، ذات التفاصيل تمر بها إلى أن تصل إلى طريقة لقائها بأمي -على روحها الضياء والنور:

- في الفترة التي كانتْ أمك تعمل فيها محررة في جريدة "أكاذيب" الشهيرة قبل سنوات من إفلاسها، جاءتْ لتغطية تأسيس جمعيتنا الوليدة،

أعني جمعية "أنصار الزواج" التي كنتُ أحد مؤسسيها، كانت أمك ليبرالية داعمة للأقليات ومثقفة، فنشأتْ بيني وبينها علاقة ودّ، وحين عرفتْ قصتي عرضتْ عليَّ أن أعمل لديها مربية لطفلها الوحيد، ألا وهو أنت: "إسِاج".

لقاء أمي بحسناء كان مُرْبحاً للطرفين، فمن جهةٍ كانتْ "حسناء" تبحثُ عن مأوى، وعن عمل يجعلها بعيدةً عن البشر الذين أصبحتْ لا ترغب الاحتكاك بهم، ولاسيما بعد ما كابدته في قريتها من مصاعب، ومن جهةٍ أخرى كانتْ أمي تريد مربية لولدها الذي تتكفل الجمهورية برعايته منذ الولادة وحتى بلوغه سن الثالثة من العمر في إحدى الدور الوطنية للقطاء، والتي تميزها بإطلاق أرقام عليها، وصل عدد الدور الوطنية في "بيلونا" وحدها ثلاثةً وسبعين داراً، ثم يستمر اللقيط، بعد نهاية الرعاية الإجبارية، عند بلوغه سن الثالثة، في رعاية الدولة حتى سن الثانية عشرة ولكن برسوم رمزية. رأتْ والدتي أن تقوم بتربيتي وتعليمي في منزلها، كانتْ ترى، في ذلك الوقت، أن المسؤولين عن تربية النشء في الدور الوطنية للقطاء كانوا متطرفين ضد حقوق الأقليات كالمتزوجين والمتدينين وغير الربويين وحتى ضد حقوق حملة الشهادات العليا. كانتْ محقّة إلى حدّ ما، ونتيجة نضالها المستمر كنتُ ضمن الجيل الثاني الذي حصل على شهادة من جامعة لوسيفر التي افتُتحتْ في العاصمة عندما كنتُ في الثانية والعشرين من عمري. كنت قد التحقتُ بها بعد عامين من افتتاحها، ثم

بعد سبع سنوات، حصلتُ على الشهادة العليا في "العلوم الإنسانية وفلسفة القذارة"، حيث كانت رسالتي بعنوان: "الأثر السلبي لدعاة النظافة الشخصية في تقويض قيم التعايش الاجتماعي"، ونِلتُ عنها مرتبة الشرف الأولى مع التوصية بطباعة الرسالة.

...

توفيتْ أمي في ذات العام بعد تخرجي وشغلي لمنصب أستاذ في الجامعة، تلك الجامعة الوليدة التي كانتْ في أمسّ الحاجة إلى أساتذة للتدريس وتعويض ما فاتْ من سنوات كان فيها حملة الشهاداتِ يُحارَبون. نعم، الحرب على التعليم الجامعي استمرتْ حتى بعد إنشاء الجامعة لاعتقاد الخاصة والساسة قبل العامة أن الاستمرار في التعلم يهدد قيم الجمهورية!، على الرغم من أن دستور وطننا المستمد من كتاب "أخلاق الجمهورية العرجاء" للمرشد الأعلى "ساطان" -على روحه الضياء- لم يَعدّ المتعلمين خطراً على القيم العليا لبلادنا، إلا أن واضعي الدستور أولوا حديثه عن خطر دعاة السلام، وأنصار العدالة الاجتماعية والمنادين بالمساواة، تأويلاً غريباً حين جزموا أنه يقصد المتعلمين وحملة الشهادات العليا. على أية حال، أثمر نضال والدتي ومن كان معها من مثقفين وإعلاميين عن تعديل دستوري صادر من المحكمة العليا يُلزم الحكومة ومجلس "الكلاب الضالة" بصفته أعلى هيئة تشريعية في البلاد بالتمسك الحرفي بما جاء في كتاب "أخلاق الجمهورية العرجاء"، وبناءً عليه تم

تعديل ثلاث مواد دستورية فنتج عن ذلك التعديل: تأسيس جامعة لوسيفر.

...

- يبدو أن وجودي معك سوف يحميك من بعضِ سهامهم.

عقّبتْ حسناء بعد وضعها الصحيفة جانباً، فقلتُ:

- هو ذاك. لكنني أتعجّب من ذاكرة هذا القائم على جمعيتكم وربطه للموضوعات ببعضها. لم أقرأ الحوار كاملاً، لكن يظهر لي أن رئيسكم الجديد يميل إلى المقارنات المنطقية، ويجيد تحليل الأحداث.
- نعم.

عادتْ "حسناء" لحمل الصحيفة ثم وضعتها على الطاولة من جديد:

- ليكن النور على روح والدتك. عشتُ معها لثلاثة عقود تقريباً، لم أشعر أنها تنظر إليَّ باحتقار أو تدينني لأنني مؤمنة بفكرة أن البشر يجب أن تربطهم علاقاتُ زواج، كما لم تعيّرني، كما يفعلُ الآخرون، بأن لي أبٌ معروف وأنني لستُ لقيطة.
- ليكن النور على روحها والسلام.

....

غادرتُ إلى غرفة نومي لأستعد للخروج، جرتِ العادة أن أجتمع ببعض الأصدقاء في حانة "بارافيليا" وسط العاصمة، وهي قريبة من العمارة التي تقع شقتي في الدور العاشر منها. تعودتُ أن أذهب ماشياً لأصل قُرابة الساعة الواحدة ظهراً إلى الحانة، هناك أجتمع بأصدقائي لتناول طعام الإفطار، ثم نغادر جميعاً في تمام الساعة الثانية ظهراً إلى أعمالنا، أما في أيام الإجازة، كهذا اليوم، فإننا نقضي بقيّته في الثرثرة والتسكّع. وقفتُ محتاراً في اختيار ما ألبس ثم وقع الاختيار على بذلة كانتْ قد أهدتني إياها عاهرتي الأخيرة "نكران" في عيد ميلادي الماضي، وكانت تنم عن ذوقها الرفيع، جاكيتٌ سماوي بكمين أسودين وبأزرار خضراء وقميص بنّي، ثم بنطلون بلون فيروزي مخطط بالوردي. اخترتُ حزاماً أصفر ليتناسب لونه مع لون جزمتي الحمراء، تلك التي ظهرتْ اليوم في الصفحة الأولى من صحيفة "قذارات" مع ذات الجوارب القطنية البيضاء والتي لم أجدها إلا بعد جهد تحت سريري.

***

[2]

أُحْمَلُ على لوح خشبي، أحاول رفع رأسي لأتعرف على هويّة من يقومون بحَملي لكنني لا أستطيع، كنتُ أشاهدُ سماءً زرقاء صافية، ولا شيء آخر. أسمع غناءً بلغةٍ لا أفهمها، لا بد أنهم مجموعة تتجاوز خمسة أو ستة أشخاص. بعد مسيرة طويلة أنزلوا اللوح الخشبي، حاولتُ أن أصرخ، أن أقوم بأيِّ ردة فعل، فلم أستطع. جاء أحدهم، وكانوا خمسة رجال أشداء سمر البشرة، فثبتني إلى التربة الحمراء الطينية التي وُضِعتُ فوقها، وقام الآخر بدق مسمارين في يديَّ بعد فَردِهما إلى أقصى حدّ. ثم دق رجلٌ ثالثٌ مسماراً طويلاً في رأسي حتى ثبَّته إلى الأرض. كان الرابع يحمل ساطوراً في يده ويرقص حول جسدي المصلوب أرضاً، أما الخامس فقد لمحتُه بطرف عيني وهو يجمع الحطب. حين انتهى كل واحد من مهمته انضمُّوا إلى حامل الساطور وراحوا يرقصون ويغنون. توقفوا فجأة، جمدوا في أمكنتهم لساعة، وحين تلبّدت السماء بالغيوم عادوا للرقص. راحَ الرجلُ الذي دق مسماراً في رأسي يصرخ بصوتٍ عالٍ ثم انتزع الساطور من يد رفيقه وانقض به على رقبتي. تحررتُ من جسدي الطفل. مشيتُ قليلاً حتى وصلتُ جذعَ شجرة تنبتُ وحيدةً في تلك المفازة، جلستُ ورحتُ أتابع المشهد، كانوا منهمكين في تقطيع جسدي وإشعال النار التي يزيد لهيبها كلما انهمر المطر. أخرجَ الرجل الذي كان يجمع الحطب زجاجةً من حقيبةٍ قماشية كان يعلقها على كتفه، شرب منها ثم تناوب عليها البقية وراحوا يشربون. عندها

رأيتُ "حسناء" مقبلة نحوي وهي عاريةٌ تماماً، جلستْ بجانبي وأسندتْ ظهرها إلى جذع الشجرة وراحتْ تتأمل معي المشهد. حين انتهوا من الشراب والرقص بدأوا بشواء القطع المأخوذة من جسدي. مدتْ "حسناء" يدها نحوي، لم يبد منّي أية ردة فعل تتجاوب مع حركة يدها التي راحتْ تُمررها على وجهي وكأنها تريدُ التعرف على أدق تفاصيله حتى ترسمه لاحقاً، ثم قالتْ:

- لماذا تركتَهم يفعلون بك ذلك؟
- إنه مجرد حلم.

قلتُ لها ذلك لتطمئن، لكنها تأملتني طويلاً، وهي لا تزال تتلمّسُ وجهي، ثم كررتْ السؤال:

- أعلمُ أنَّه حُلُم، ولكن لماذا تركتَهم يفعلون بك ذلك؟

...

تجاوزتُ "حسناء" وقد أغمضتْ عينيها، وجسدها ممددٌ على الأريكة الجانبية في صالة الجلوس، حين أغلقتُ باب شقتي وبدأتُ النزول عبر السلالم ابتسمتُ لأن اليوم هو يوم الثلاثاء، لا عمل، لكنني كنتُ مستعداً لما أتوقع أن أواجهه. لم يكن هناك بأس سوى في اضطراري لارتداء هذه الملابس التي تتناسب مع يوم الخميس، أول أيام الأسبوع في مدينتنا، وأول أيام العمل. كان يمكن ارتداء ملابس تناسب يوم إجازة، ولعل ما مر بي هذا

الصباح، وبعد كل ما شاهدتُه وقرأتُه من هجوم، هو ما جعلني أخرج بهذه الملابس الرسمية.

- لا بأس.

قلتُ لنفسي، وواصلت النزول.

خرجتُ من الحي، فاستقبلني هواء ظهيرة أواسط شهر نوفمبر، لم يمضِ سوى أقل من أسبوعين على بداية الشتاء، ما جعلني أفكر في إطالة السير، فاتجهتُ إلى اليمين سالكاً الطريق التاسع عشر والذي ينتهي بعد نحو كيلو متر واحد بدار القضاء ويليه الشارع السابع والعشرون المفضي إلى وسط المدينة، كان يمكن أن أسلك طريقاً مختصرةً لكنَّ رغبتي في الاستمتاع بهذا الهواء البارد المنعش، وكذلك التفكير فيما يمكنني فعله حيال أحداث الأمس جعلني أسير ببطء عبر هذه الطريق. كنتُ، أيضاً، أشعر بالقلق تجاه "حسناء" التي لم تعد قادرةً على فعل الكثير بفعل وهنها الظاهر، وأفكر في أسلوب حياتها الذي جعلها في السادسة والستين من عمرها دون أن تفعل الكثير. ناقشتُها مرّة قبل سنوات حول قناعاتها، فكررتْ كلمة "الشرف" أكثر من مرة، بالنسبة لي رأيتُها حينئذٍ تختنق بحبال خطيئتها التي لن تشعر بوطأتها إلا على فراش الموت، ففكرة الشرف فكرةُ من يريد أن يتعثَّر بالناس، من يرى أن حكم الآخرين عليه هو المهم وليس ما يعيشه هو فعلاً ويشعر به، فيبقى رهن هذه الفكرة دون حراك. منذ متى كانتْ حياة الإنسان بعيدة عن المخاطر؟ عن الشغف والمغامرة؟ هناك

شريحةٌ من الناس ينهشهم القلق، ويتهامسون بينهم بهذه المفردات الغريبة: الشرف؛ الفضيلة؛ الكرامة، بل وينقلون هذه القيم الشاذة إلى أبنائهم، بسبب خوفهم من الفناء، الخوفُ الذي لازم الإنسان الأول فجعله يلجأ إلى الكهف ليحتمي به، ثم خط المدن والأسوار، وقام بكل ما يستطيع لبناء المساكن التي توهمه بالخلود، وحينما فشل أعاد اختراع كلمة "الشرف" مرّة أخرى ليجعلها تبرر موته في ميدان المعركة؟ فلأي شيء يعيش الناس؟ ولأي هدف يموتون؟ إن فكرة "الشرف" هي ما جعل سوق النصائح رائجةً، فيصبحُ البشر أوصياء على بعضهم البعض، من منّا يمتلك الحكمة الكاملة التي تؤهله ليصبح وصيّاً على الآخرين؟ إن الوعظ في النهاية لا يمارسه أفرادٌ يرغبون في خلاصك، وإنما يمارسه البعض بدافع شعورهم الذاتي بالخلاص والراحة. إنه لا يُفضِي إلى أي نتيجة إلا العزلة والنفور من الاستئناس بالبشر، كحال تلك الـ "حسناء" النَكدة، لهذا كان من أولويات المرشد الأعلى "ساطان" -على روحه الضياء- حين كتب "أخلاق الجمهورية العرجاء" أن يحذّر من كلمة الشرف، وأن يوصي بأن تتولى الدولة تربية النشء لإبعادهم عن معتقدات الأهالي فلا ينشأ جيلٌ تنظر روحه إلى جسده باحتقار، بل تكون الدولة هي الراعية لتنشئة جيل يسعى إلى تغليب حواس جسده على مخاوف روحه التي لا نهاية لها، فالجسد هو الظاهر في النهاية، وهو أول الوجود، وآخر ما يُحرقُ بعد الموت، وبين وجوده الأول بفعل الولادة وبين غيابه الأخير بفعل الموت تظهر عليه العلل ويفقد بعضه ويتألم.

كنتُ قد بلغتُ بداية الشارع السابع والعشرين حين لمحتُ الدكتور "مَحزُون" جالساً على طاولةٍ بمحاذاة الواجهة الزجاجية لمقهى "27" والذي أخذ اسمه من اسم الشارع، أشار إليَّ فلم أستطع تجاهله ما جعلني أدخل لتحيته، صافحني بحرارة، ثم دعاني للجلوس. حاولتُ الاعتذار لكنه كان يصر:

- "لا بأس، بقي متسعٌ من الوقت قبل بلوغ الساعة الواحدة ظهراً".

قلتُ لنفسي وجلستُ.

- ماذا تحب أن تشرب؟
- قهوة "الخنافس" المحمّصة.

فانصرف لطلبها.

الدكتور "محزون" هو من خلَفني في رئاسة قسم الدراسات العليا بعد استقالتي منه، وهو، على بلادته الظاهرة، المؤهل الوحيد لشغل منصبي عندما غادرته. حين عاد، بادرته بالسؤال عن حاله:

- لا جديد. انفصلتُ عن "فطريات"، لم تعد عاهرتي.

ثم يضيف:

- لا أدري لماذا رَحَلتْ؟ ربما كانت حاملاً، يرحلن غالباً لهذا السبب، حتى لا يعلم أحد من هو الأب، يرحلن بكل بساطة وبلا مقدمات، لحماية أطفالهن من العار.

علّقتُ، من باب مجاملته بإظهار أني أشاركه فيما يشعر به من حزن لا أكثر، إذ لم أكن مهتماً حقيقةً بأخباره الشخصية:

- عندما تركتُ القِسمَ كنتُما تشكلان ثنائياً رائعاً.
- نعم، كان هذا في بداية علاقتنا، ثم بعد ثلاث سنوات تقريباً رحَلتْ، هكذا ببساطة. لازالتْ تعمل معي في القسم ذاته لكنني لا ألتقيها إلا نادراً. نتحاشى أن نلتقي، هذه هي الحقيقة المتفق عليها ضمناً بيني وبينها.
- وهل لازالتْ تقوم بحركتها المحببة تلك؟
- أي حركةٍ تقصد؟
- عندما تضع أصبعها في أنفها ثم تعود لِلَعقة؟

ضحك، وقال:

- حقيقةً لا أدري، لكنها كانتْ جميلةً على أيِّ حال.

نعم، كانتْ "فطريات" معيدةً في كلية العلوم الإنسانية والفلسفة القذرة، كانتْ قصيرة يتجاوز وزنها الثمانين كيلوجرام، حليقة شعر الرأس والحواجب، ويزيد من جمالها ظهور علاماتُ حروق على رقبتها القصيرة.

سعى الكثير من دكاترة الكلية لطلب ودّها، لكنها أصبحتْ عاهرة الدكتور "محزون" بعد نحو شهرين من انضمامها إلى الجامعة. لعل ما جذب الدكاترة إليها، إضافة إلى جمالها الفريد، هو قيامها بحركتها المميزة تلك: أن تلعق أصبعها بعد أن تخرجه من أنفها، ولعله هو السلوك الوحيد الذي بقي لها في ذاكرتي.

قلتُ، لأسأل عمّا يهمني فعلاً:

- ما أخبار الجامعة الآن؟

قبل أن يُجيب الدكتور "محزون" وصلتْ القهوة، قدمتْها لنا سيدة في منتصف الثلاثين من عمرها تقريباً، لا أتذكر أنني قد رأيتُها هنا من قبل. آخر مرة كنتُ هنا قبل عام أو أكثر، مدة طويلة كفيلة بتغيير الكثير في مقهى معروف كهذا، جلتُ بنظري لأرى إلى أيِّ حدٍ تغير المكان، فهالني أن المقصورة التي كانتْ على يسار الداخل إلى المقهى قد أُزيل حاجزها الزجاجي ودُمجتْ بالمقهى:

- ما الذي حدث للقاعة الأخرى؟

وأشرتُ بيدي، فبادرتْ النادلة باستفهام:

- تقصد مقصورة المتزوجين؟ والذين لا يدخنون؟
- نعم، مقصورة الأقليات.

ندَّتْ منها آةٌ قصيرةٌ، وقالتْ:

- ُلحقتْ ببقية المقهى منذ شهرين أو ثلاثة، كانتْ الضغوط كثيرة على صاحب المقهى، قالوا إنها تمييز عنصري ضد الأقليات، وإن هذا لا يليق بالقيم الجديدة للجمهورية، فدمجها المالك ببقية المقهى مضطراً. الآن يحدث أن تجد الطاولة التي بجوارك مشغولةً بزوجين، أو بشاب لا يدخن، أو حتى بفتاة لا تتعاطى المخدرات.

صمتتْ، وأجالتْ نظرها في أرجاء المكان، ثم أضافتْ بأسف:

- تخيّل إلى أيِّ مستوى متدنٍ وصلنا؟

كانت تتحدثُ، وكنتُ أراقب حركة يديها القصيرتين بعد أن تحررتا من حمل قهوتي، لمحتُ "وحمةً" سوداء في الجانب الأيسر من وجهها تضفي على جمالها طابعاً خاصاً، وتزيد آثار خُرَّاج قديم تحت أذنها اليمنى من جاذبيتها. فكرتُ أن أسألها إن كانتْ، في هذه الفترة، عاهرةً لأحد؟ أم لا؟ لكنني اكتفيتُ بسؤالها عن اسمها:

- شرموطة 216
- اسمٌ جميل.

اكتفتْ بالابتسام، ثم انصرفتْ.

"شرموطة" للفتيات، و"لقيط" للفتيان؛ الاسمان المعتمدان لجميع أطفال "جمهورية أَهْرِيمان"، ثم يلحق بكل اسم آخر ثلاثة أرقام من الهوية الوطنية للمولود لتمييزه عن البقية، ثم يستمر الحال على ما هو عليه حتى سن الثانية عشرة، لا يحق لأي أم، بموجب المادة الثالثة والعشرين من الدستور، أن تفكر في تغيير اسم مولودها قبل هذه السن؛ الثانية عشرة، وهي سن نهاية مرحلة الطفولة والتعليم الإلزامي الذي تتكفل به الدولة، بعد ذلك، أي حين تتسلم الأم مسؤولية رعاية مولودها يمكنها اختيار ما تريد له من أسماء، شريطة أن تبتعد عن الاختيار من قائمة الأسماء الموجودة كأسماء محظورة على قاعدة البيانات الوطنية "زيف"، قائمةٌ طويلة لا يقبل النظام الإلكتروني تسجيلها لأنها مستبعدة من النظام، كأسماء: شريف، فضيلة، عفاف، نزيه، صادق، وغيرها مما يشبه هذه الأسماء ذات المدلولات القبيحة. لهذا بات اسم "شرموطة" هو أكثر أسماء الفتيات شيوعاً في مدينتنا، بينما اسم "لقيط" الأكثر شيوعاً للفتيان، ومن الأمهات من تُبقي على الاسم الوطني لمولودها، فيحدث أن تلتقي بـ "لقيط 412" أو "شرموطة 627" وهكذا، حتى إنني أذكر فتىً تقدم للعمل معيداً في كلية "العمارة البشعة" كان اسمه: "لقيط 111"، وأتذكر تعليقات الزملاء في مجلس الجامعة حول اسمه الفريد، وإعجابهم بقرار والدته في الإبقاء على الاسم الوطني المميز لطفلها.

- سألتَني عن أحوال الجامعة؟

انتبهتُ على وقع النبرة المميزة لصوت الدكتور "محزون"، فقلتُ:

- نعم، كيف هي الجامعة الآن؟
- تذكرُ الدكتور "عاثر" عميد كلية "تنمية الاقتصاد الربوي"؟
- نعم، أذكره.

قلتُ ذلك، لكنني حقيقةً لا أتذكر سوى اسمه، عندما تركتُ الجامعة قبل ثلاث سنوات تقريباً كان قد اختير عميداً لكلية تنمية الاقتصاد الربوي، لكنني غادرتُ الجامعة، وبالتالي تركتُ عضويتي في مجلسها، قبل إجراء المقابلة الشخصية معه لاعتماده، أتذكر أوراق ترشحه للعمل عميداً للكلية التي كان أستاذاً فيها، كان ملفه غنياً بالأبحاث الأكاديمية عن "خطر الاقتصاد التقليدي والتجارة المشروعة على رفاهية المواطن"، وأطروحات مميزة حول أهمية الاستغلال الاقتصادي للشعوب لضمان الولاء الوطني، وغيرها الكثير.

- أصبحَ قبل شهر تقريباً مديراً للجامعة.
- لا علم لي بذلك!، وأين ذهبتْ الدكتورة "تنبل"، هل تم الاستغناء عنها؟
- تقاعدتْ.
- أوه. وكيف هو مديركم الجديد؟
- يحاول جهده، لم يتضح شيءٌ حتى الآن، لكن يُقال إنه في الاجتماع الأول لمجلس الجامعة وعمداء الكليات هاجم بشدّة تدخل التجار في

الجامعة وعملها من خلال الكراسي البحثية، كما هاجم المنح الدراسية التي قال إنها تدعم الطلاب من المعارضين لقيم الجمهورية.

- لم تحضر الاجتماع؟
- لا، لا، أَنَبتُ الدكتور "مقلاص" لحضور الاجتماع. هو من أخبرني بكل ما دار فيه، ووصفه بأنه اجتماعٌ عاصف.
- إلى هذه الدرجة؟

سألتُ، ورشفتْ من كوب قهوتي. لازالوا يقدمون قهوة الخنافس المحمّصة بذات الجودة منذ سنوات، كنتُ أشعر بالجوع، وتذكرت طبقهم المميز في هذا المقهى: "وجبة لحم الفأر بصلصة العفن"، لكنني فضّلت تأجيل فكرة الأكل إلى حين الالتقاء بأصدقائي، وربما أعود لاحقاً للتعرف أكثر بالنادلة "شرموطة 216" واستعادة مذاق وجبتهم المميزة.

- نعم.

سكتَ، ثم استدار لطلب النادلة، أشار إليها بيده فجاءت مسرعةً:

- أيضاً، كوب من قهوة الخنافس المحمصة.

وأشار إلى فنجاني. فانصرفتْ النادلة. ثم واصل حديثه:

- هاجم بشكل خاص رجل الأعمال المعروف "لوياثان" صاحب مؤسسة الإقراض الربوي الوطنية، قال إن كرسيه المسمى باسمه قدّم العام الماضي منحتين دراسيتين إحداها لدراسة الاقتصاد الجزئي، والأخرى

لدراسة الاقتصاد الكلي، بينما رفض تقديم منحة لطالبة كانت ستدرس فاعلية تشجيع سلوك الرشاوى في مقاومة وحشية اقتصاديات العولمة.

لم أكن أفهم في الاقتصاد كثيراً، لهذا تركتُه يسترسل، يبدو أن في الأمر خلافات شخصية بين رجل الأعمال وبين رئيس الجامعة الجديد.

- كما أنه هاجم التخصصات الدقيقة في الجامعات، وذكر أن سياسته، التي سيتبعها، ستكون الأولوية فيها لسياسة إغلاق الأقسام الفرعية التي امتلأتْ بها الكليات. وسيبدأ بقسم "تربية اللقطاء حتى سن الثالثة" الملحق بكلية علوم تربية اللقطاء وتعليمهم، قال إن التخصص الجزئي يحوّل أساتذة الجامعة إلى قنادس تحفر عميقاً حتى تفقد الرؤية، وعدّ هذا جزءاً من تسطيح العلوم وجعلها غير ذات قيمة.

بدا لي أن منهج الدكتور "عاثر" سيكون منهجاً عملياً ومجدياً، لكن سنرى ما تؤول إليه الأمور في قادم الأيام. خصوصاً موضوع قسم "تربية اللقطاء حتى سن الثالثة"، إذا نجح في إذابة القسم فإنه سيفعل ما يشاء في الجامعة، لأن مجلس الوزراء يهتم بهذه الجزئية تحديداً، وهي من المواد الأساسية في الدستور الوطني، وعقد لها المرشد الأعلى "ساطان" - على روحه الضياء- فصلاً كاملاً من كتابه "أخلاق الجمهورية العرجاء". كان الدستور ينص في مادتِهِ الثالثة والعشرين على أن كل لقيط تتم ولادته في

مستنقعات الحكومة أو المستنقعات الخاصة يؤخذ من والدته بعد تدوين اسمها وبصمتها وسجلها الوطني وتدوين بصمة المولود، ثم تتولى إحدى دور اللقطاء الوطنية تربيته في دار تكون قريبة من سكن الأم الموضح عنوانها على صفحة بياناتها في نظام البيانات الإلكتروني الوطني "زَيْف"، وتكون رعايته إلزاماً على الدولة بلا أي مقابل مادي، ولا يحق لأي أم أن تطالب بتنشئة ابنها او ابنتها الوليدة قبل بلوغ اللقيط سن الثالثة. ثم تُلحق تشريعاتٌ تفصيلية كثيرة حول هذه المادة الدستورية الأساسية، ولعل من أبرزها أن استمرار رعاية اللقيط وتعليمه، بعد سن الثالثة، حتى سن الثانية عشرة من عمره من واجبات الدولة ولكن بمقابل رمزي لا يتجاوز 5% من دخل والدته، ويكون مجاناً إذا لم يكن للوالدة مصدر دخل.

- قضيةُ تنشئة اللقطاء قضية ذات حساسية بالغة، لكنني أرى أن تدريس القائمين على تربية وتعليم النشء بكلية علوم تربية اللقطاء وتعليمهم يمكن أن يتم بلا تجزئة، أن يدرس الراغبون في الالتحاق بمهنة التعليم مرحلة التنشئة ومرحلة التعليم الأساسي معاً. يظهر لي أنها فكرة سديدة.

لم يعقّب الدكتور محزون على تعليقي، فنظرتُ إلى ساعتي التي تجاوزتْ الواحدة ظهراً بخمس دقائق، فاستأذنتُه لأنصرف. قال وهو يصافحني:

- هل لديك معلومات عن أي مواد دستورية يتحدثون؟

قلتُ، وكنتُ راغباً حقيقةً في عدم الجلوس لخوض المزيد من الأحاديث:

- أربع مواد دستورية، مشروع قدمه رئيس الجمهورية بعلزبول، لإعادة صياغتها، ووافق عليه مجلس الكلاب الضالة، وهو الآن في أروقة برلمان "أهريمان" لمناقشته وإقراره، لكنني، حقيقةً لا أعرف أي مواد هي التي يراد تعديلها.

صافحتُه مرّةً أخرى، وانسحبتُ مسرعاً، فجاءني صوتُه من الخلف:

- ألن تدفع الحساب؟

التفتُّ، وقلتُ:

- لا، هذه المرة ستكون على حسابك.
- لا، لا. ستدفع أنتَ الآن، وسأدفع في المرة المقبلة.
- أبداً. أنتَ من سيدفع.

فرِح بانتصاره الصغير في هذه العادة التي تجدها شائعةً، تحديداً في مدينة "بيلونا"، حين يختلف الجلساءُ حول من سيدفع الفاتورة، ويصر كل واحد على ألا يدفع، ولا ينتهي الجدال إلا بانتصار أحدهما حين يجبره الآخر على دفع الفاتورة كاملة.

ابتسمتُ، وأشرتُ مُحيّياً النادلة "شرموطة 216" التي كانتْ تنظر إليّ، فردتْ تحيّتي بابتسامة رقيقة، ثم غادرتْ.

[3]

فقدتُ قدميَّ في إحدى الليالي، كنتُ في فضاءٍ مظلم لا أرى له أيَّ نهاية، كانتْ الثلوج تتساقط بغزارة، حاولتُ أن أحتمي من البرد بأي مكان دافئ، لكنني بلا قدمين، لمحتُ أضواء حانة خلف منطقة ألعاب الأطفال الممتلئة عن آخرها. تفصلني عنهم مسافة قصيرة، أصرخ فلا يسمعني أحد، زحفتُ باتجاههم، كان الثلج يتبعني، حين وصلتهم بدا أن أحداً منهم لم يلاحظ وجودي. تجاوزتُهم واستمريتُ في الزحف نحو الحانة، نبتَ بيني وبينها جسرٌ خشبي، لم أره من قبل، واصلتُ الزحف إلى الجسر، حين بلغته وزحفتُ إلى وسطه كانت الثلوج قد أثقلتْهُ فتحطم. استسلمتُ، كنتُ أهوي بلانهاية، ضباع أسمع نخيرها الذي يختلط بأصوات حيواناتٍ أخرى لا أميزها، ثم تتحول الأصوات المتداخلة إلى صخور بأحجام مختلفة وتهوي بقربي فأرتطم بها. أستمرُ في السقوط. حين استيقظتُ كنتُ أرتجف من البرد، وكان نخير الضباع لا يزال يطاردني.

...

على امتداد شارع سبعة وعشرين كنتُ أسير ببطء، لا بأس من التأخر عن الأصدقاء في يوم إجازة، أو حتى تغيير المسار. الحقيقة أن مروري بهذا الشارع من بدايته وسلوك طريق طويلة عائد إلى رغبتي في التخفّف من ضغوط مساء أمس، وهرباً من سيل الإعلام الهجومي الذي اجتاحني

صباح اليوم لمجرد "كلمة" أقامتْ الدنيا ولم تُقعِدها. أيضاً، هذا الشارع الموصل إلى وسط المدينة يضم أهم المحلات والعلامات التجارية، ويشتهر ببيع أجود أنواع المخدرات، كما يضم مقارَّ الأحزاب الوطنية، وبعض الصحف. توقفتُ حين حاذيتُ-في بداية الشارع وليس بعيداً عن مقهى"27"- مقرَّ حزب "شُبُهات" الوطني، أسستْ الحزب سيدة سحاقية كانتْ من سيدات المجتمع، ثم انضم إليها مجموعة من المثليين البارزين، ومنه انطلقتْ مسيرة السيد "أهريمان" مؤسس الجمهورية. حزب "شُبُهات" هو حزب "بعلزبول" رئيس الجمهورية الحالي. الأدق أن أقول إنه الحزب الحاكم منذ تأسيس الجمهورية، وهذا عائدٌ إلى سعة قاعدته الشعبية من المثليين والمثليات، ولوجود أحزاب داعمة ومستعدة لتكوين ائتلاف مع "شُبُهات" حين تنقصه بعض المقاعد في برلمان "أهريمان" الوطني. منه انطلق الرئيس الحالي "بعلزبول"، ومن ذات الحزب انطلق الرؤساء السابقون. يليه مباشرة مبنى الحزبين المواليين للحزب الحاكم، وهما حزب "ساقطات بلا حدود"، وحزب "قُبح" اليميني المتطرف. وهما الحزبان المستعدان لدعم "شُبُهات" على الدوام. في الدورة الأخيرة للانتخابات البرلمانية فاز حزبنا المعارض "قلاقل" بأكثر من 40% من المقاعد، كان يمكن أن نشكل الأغلبية ونسقط حكومة بعلزبول، لكن فوز حزب "ساقطات بلا حدود" بأربعة عشر في المئة من مقاعد البرلمان، وحزب "قبح" اليميني المتطرف بأحد عشر في المائة من المقاعد، ثم تحالفهم مع حزب "شبهات" جعل من المستحيل حجب الثقة عن الحكومة الحالية، سيبقى

"بعلزبول" على أية حال، وحينما يذهب، سيأتي مرشحٌ آخر من ذات الحزب ليحل مكانه بلا أدنى شك.

تجاوزتُ مبنى حليفَيّ شبهات لأبلغ مبنى صحيفة "أكاذيب" التي كانتْ والدتي تعمل فيها، تقدمتُ حتى وصلتُ إلى واجهة المبنى المهجور منذ سنوات. ترقَّتْ والدتي في هذه الصحيفة حتى بلغتْ منصب مسؤولة تحرير "أكاذيب القسم المحلي" ومسؤولة قسم ترجمة الهراءات الدولية في الصحيفة. يشعرني المبنى الآن بأنني أقفُ أمام منزلٍ نُسي حتى مِن أن يَلتفتَ إليه المارَّة، من الصعب أن تستمر صحيفة جادة وسط هذا الدفق الإعلامي المحموم، كما أن الصحافة المختصة، وصحافة التابلويد، والصحف المدعومة من قبل التجار والشركات أثَّر تأثيراً سلبياً على صحيفة أكاذيب المستقلة.

أتذكر، وأنا أقف أمام هذا المبنى الذي قضتْ فيه والدتي ما يزيد عن ثلاثين عاماً، بعض شعارات الصحيفة وأهدافها التي كانتْ والدتي تدافع عنها. كانت الصحيفة جادة ومصنفةً كصحيفة سياسية اجتماعية ليبرالية مستقلة، وكان شعارها الرئيس، والذي لا يزال منقوشاً تحت عنوان الصحيفة أعلى المدخل الرئيس: "أكاذيب من أجل الوطن". كنتُ مفتوناً بهذا العنوان المختصر والمعبّر، ومع مرور الأعوام ازداد إدراكي شيئاً فشيئاً لعمق هذا الشعار الذي يجسد حرص الصحيفة والقائمين عليها

على أن يكونوا ركيزة أساسية من ركائز التنمية على مستوى الدولة، وإيمانهم الباعث على الإعجاب برسالة الإعلام الهادفة.

أيضاً، من الأسباب الهامة لإفلاس الصحيفة أنها كانتْ مستقلة، لم يكن القائمون عليها يقبلون دعماً مالياً من أيِّ جهة، ولم تكن تابعة لأيِّ حزب. بقيتْ راسخةً على مبادئها في الحصول على تمويل من جهات اعتبارية ذات بعد أخلاقي، كما كانتْ تقبل الدّعم من شذاذ الآفاق من وجهاء المجتمع وهم قلّة، أيضاً سعت لتمويل صدورها من خلال الرشاوي والعمولات وكافة مصادر الدخل المقبولة اجتماعياً، وقبل ذلك المجازة نظاماً.

كل هذا لم يفلح في جعل "أكاذيب" تنجو من الإفلاس، فقد ظهرتْ صحيفة "أضغاث" المدعومة من الحزب الحاكم بشكل غير مباشر. كانتْ، على سبيل المثال، السيدة "كوارث" مؤسسة حزب "ساقطات بلا حدود" الموالي للحزب الحاكم، هي مؤسسة صحيفة "أضغاث" وأول رئيس تحرير لها، قبل أن يتولى د "داسم" رئاسة تحريرها قبل نحو عام، وكان غالبية العاملين في الصحيفة ينتمون إلى حزب "شُبُهات" الحاكم، كثيرٌ من المنتمين للحزب ينتقلون للعمل في الصحيفة، أو العكس!، د "داسم" كان الاستثناءَ الوحيد، فهو عضو حزب "قلاقل"، ورغم ذلك وصل إلى رئاسة التحرير، ربما على سبيل التغيير، من يدري!!.

يمكنني دفع الباب والدخول، ربما أتجول في أقسام الصحيفة الآفلة، أستعيدُ بعض الذكريات التي شهدتُها في أروقة هذا المبنى المهجور، وكانتْ سبباً في حبي للقراءة، كما كوّنت "أكاذيب" لديَّ ميلاً للعمل في ميدان السياسة، كانت "السياسة" هي عماد مادة الصحيفة وزادها اليومي، ثم يليها المواد ذات الطابع الاجتماعي، يليها القسم الثقافي، ولا يوجد قسم للرياضة. نعم كانتْ صحيفة جادة لا تهتم بالانتشار من خلال تسطيح المتلقين وإيهامهم بأنهم مثقفين كدأب الصحف الأخرى، أتذكر مرّة دراسة استطلاعية نشرتها الصحيفة على أربع صفحات في القسم الاجتماعي حول "قيم جمهورية أَهْرِيمان لدى خريجي السنة النهائية في دور اللقطاء التعليمية الوطنية"، استمدتْ الصحيفة محاور الاستطلاع وفقراته من المواد المكوّنة للدستور الوطني، وما جاء في كتاب المرشد الأعلى للجمهورية "ساطان" - على روحه الضياء - أتذكر ما أثاره ذلك الموضوع من ضجة حال نشره في الصحيفة، واستمرتْ ردود الأفعال المؤيدة والمعارضة لنتائج الدراسة الاستطلاعية لأسابيع. كان من الصادم لصانعي القرار أن يكتشفوا أن 76% من حديثي التخرج من دور اللقطاء الوطنية لا يعلمون شيئاً عن المادة الأولى في دستورنا الخاصة بمواد ومصادر اشتقاق الميثاق والدستور الوطني، بل إنَّ كامل النسبة المئوية الستة والسبعين لم يسمعوا من قبل عن المرشد الأعلى للجمهورية ولا يعرفون شيئاً عن كتابه "أخلاق الجمهورية العرجاء"!، جهلٌ مريعٌ إن دل على شيء فإنما يدل على فشل مؤسسات تربية اللقطاء الوطنية، كما قال أحدهم، معلقاً في برنامج

حواري عبر التلفزيون الرسمي "أهريمان"، ما جعل وزير تربية اللقطاء وتعليمهم يشارك في ذات البرنامج الحواري في اليوم التالي ليشكك في جدوى دراسة تنشرها صحيفة يدور حولها الكثير من التساؤلات، وخاصة مصادر تمويلها:

- لديَّ معلومات شبه موثوقة بأن الصحيفة تتلقى تمويلاً من مؤسسة "الرفق بالإنسان" الدولية المعادية، ومن مؤسسات أخرى مشابهة.

هكذا جاء رد وزير التربية، ليفتحَ الباب على مصراعيه فتدخَّل برلمانيون، ووكلاء وزارت، وحزبيون في النقاش الذي شكّل طوفاناً "رسمياً" بهدف مهاجمة الصحيفة والقائمين عليها والتشكيك في الولاء الوطني ليس فقط لمالكي الصحيفة وهيئتها التحريرية، بل وحتى لقرائها وشريحتها المستهدفة، ثم كانتْ القشّة التي قصمتْ كلَّ شيء، حين نقلتْ وكالة الأنباء الوطنية "فاسد" وغالبية القنوات التلفزيونية مؤتمراً صحافياً عقده الأستاذ "مأفون" رئيس مجلس "الكلاب الضالة" أعلى سلطة تشريعية في البلاد، كان المؤتمر بمناسبة انتهاء أعضاء المجلس من دورتهم الحالية ذلك العام، أجاب "مأفون"، في ذلك المؤتمر، عن سؤال لإحدى الصحفيات، التي لا أتذكر اسمها أو الجهة التي تعمل فيها، حول الدراسة المنشورة في صحيفة "أكاذيب". لم يكن رئيس المجلس بحاجة لتحديد أي دراسة تعني الصحفية بسؤالها، فقد كانت الدراسة ملء السمع والبصر في ذلك الوقت، وشاغله المجالس والحانات:

- نحن في مجلس الكلاب الضالة لسنا معنيين بأي دراسة لا تصدر عن جهة بحثية موثوقة، وسأطلب، شخصياً، من الدكتورة "تنبل" مديرة جامعة لوسيفر تكليف من يقومون بدراسة استطلاعية مشابهة، ونحن في المجلس على ثقة بأن نتائجها ستكون مغايرة تماماً لدراسة أكاذيب.

كانتْ هذه إجابة الأستاذ "مأفون"، وجامعة لوسيفر لم تزل، في ذلك الوقت، في بداية تكوينها ونشوئها، وهي التي كانت موضع شكٍ من قبل كثيرين من الموجودين في الحكومة وفي عضوية الأحزاب السياسية وحتى الإعلاميين الذين استمروا لسنوات قليلة فيما بعد يراقبون أداء الجامعة، وينتظرون ما ستسفر عنه من مُخْرجَاتٍ وما سيشكله نتاجها في رفد لقيم الجمهورية. إذن، الإجابة القاطعة صدرتْ من المتواجد في أعلى السلطة التشريعية في البلاد، والذي يفوق نفوذهُ نفوذَ رئيس الجمهورية المُنتَخَب، إذ إن جلوس المرشد الأعلى على كرسي رئاسة مجلس الكلاب الضالة جلوسٌ أبديُ يستمر حتى وفاته دون أن يمس به أحد أو يشكك في قدراته الجسدية أو العقلية مهما تدنتْ، تلك الإجابة لم تنهِ النقاش حول استطلاع صحيفة "أكاذيب" فقط، بل أوجدتْ أول خطاب سياسي عال المستوى ينظر لتأسيس الجامعة، بقرار جمهوري فحسب، على أنه قرار مشروع وله قبول في مجلس الكلاب الضالة. بالطبع، من نفل القول أن

أذكر أن الدراسة التي وعد "مأفون" بمخاطبة الجامعة لإجرائها لم تتم أبداً.

أما قسم الثقافة في صحيفة أكاذيب فإنه كان القسم المحبّبُ لديّ، كانت تقدم فيه الصحيفة ملخصات لكتب صادرة حديثاً، وهي ملخصات تستمر لحلقات متوالية تتضمن أبرز ما تناوله الكتابُ الصادر حديثاً، ثم يتم نقده وإضافة بعض الشروحات لمادته ومصطلحاته، من مثل دراسة وتقديم كتاب: "حوكمة أنظمة الهراء الوطني"، لمؤلفته الأستاذة "بصقة"، وهي بالمناسبة والدة طالبتي في قسم العلوم الإنسانية والفلسفة القذرة الصحفيَّة "أراجيف" التي كتبتْ اليوم مقال "العقل الرجعي لنائب المحافظ". كان كتابُ "بصقة" يتألف من مجلدين، ضم المجلد الأول منه "حوكمة هراء الوزارات السياسية والاجتماعية"، بينما أفردتْ المؤلفة المجلد الثاني كاملاً لـ "حوكمة هراء المؤسسات الاقتصادية للدولة وأنظمة المكر الضريبي"، كان كل مجلد يتألف من أربعة أقسام، لهذا جاءتْ مراجعة الكتاب في صحيفة أكاذيب على ثمانية أعداد، في كل عدد تتناول الصحيفة قسماً من الكتاب على صفحتين متقابلتين؛ تضم الصفحة الأولى أبرز ما جاء في القسم الخاضع للمراجعة، ثم تستضيف الصحيفة خبيراً في ذات المجال للتعليق على ما ورد في الكتاب.

ثم إن قسم الثقافة كان يستكتب أبرز أدباء ومثقفي الجمهورية، فقد كان للأستاذ "لقيط 106" عمود أسبوعي يناقش فيه أبرز القضايا

السياسية والاجتماعية والثقافية، وكان يحظى بمقروئية عالية بين قراء الصحيفة ذلك أنه مؤلف رواية "خطورة الأمانة"، التي طُبعت أكثر من سبعَ عشرةَ طبعةً في العام الأول من صدورها. كما كانتْ الأستاذة "مُجون" تكتب مقالاً يومياً قصيراً بعنوان: "المُثل العليا"، وكان من كتّاب الصحيفة، وإن كان يكتب على فترات متباعدة، الأستاذ: "مارق" وتُعدّ مقالاته ذات طابع اجتماعي ثقافي ساخر، لا أنسى مقالته ذائعة الصيتْ: "دور راقصة التعري "حياء" في تحسين الناتج المحلي".

كل هذه الذكريات تتزاحم الآن لتعيدني إلى أيام كانتْ فيها هذه الصحيفة، التي أقف أمام بابها، محركاً قوياً للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في جمهوريتنا في حقبةٍ ما، بل إنني لا أشك للحظة أن صحيفة أكاذيب، وما شابهها من صحف وقنوات إعلامية جادة، هي أهم وسائل تكوين الوعي الجمعي في بلادنا ودفعها قُدماً. لم يعد هناك مكان لصحافة كهذه، منذ أن فاز الحزب الحاكم بأغلبية ساحقة في الانتخابات، ومنذ أن حصد 60% من مقاعد برلمان "أهريمان" الوطني هو وحلفاؤه، واستمر بهذه النسبة من مقاعد البرلمان لسنواتٍ طوال. اختفتْ صحيفة أكاذيب تحت ذرائع اقتصادية بحتة، ومن المؤكد أن هناك من الأسباب السياسية الكثير والكثير لجعل ستار النسيان يطوي تلك الحقبة الذهبية.

لم تكن بي رغبة للدخول، قررتُ تجنّب سيل الذكريات الجارف، ولاسيما الذكريات العاطفية، لهذا واصلت طريقي نحو حانة "بارافيليا"

التي تقع في قلب العاصمة النابض، ميدان "ويلات" وتتشعب منه أهم طرق العاصمة الرئيسية، وهي ثلاثة: طريق سبعةٌ وعشرون، وطريق "شهداء الضلال"، ثم طريق "ساطان" الذي كان تغييرُ مسماه من أبرز إنجازات رئيس الحكومة "بعلزبول" وحجر الزاوية في الانتخابات التي أوصلته إلى مبنى "بيت الأشباح" الذي يضم مقار سكن أعضاء الحكومة، حيث وعد، أثناء حملته، بإطلاق اسم المرشد الأعلى الراحل على شارع تسعة وعشرين وصيانته، وزيادة بيوت الدعارة على جانبيه، وهو ما حدث بالفعل.

***

[4]

حلمتُ مرةً بصوت حاد، كان ينبعثُ من وسط المدينة، بدأ بصراخ خافتٍ يتعالى حتى بات أشد وضوحاً كلما هربتُ بعيداً عنه. وجدتني فجأة طفلاً يحبو، اجتزتُ الطريق الذي لم أكن أعرف اسمه، ولا أدركُ إلى أين يتجه. كانتْ هناك امرأةٌ تنتظرني على الرصيف الآخر، حين هتفَتْ باسمي تبين لي أنه ذاتُ الصوت الذي كان يصرخ. اقتربتُ منها والرعبُ يعتصرني، لم أكن أعلم إلى أين أتجه، ولم أكن قادراً على الكلام، لديَّ ما أقوله لكنني لا أمتلك اللغة التي تساعدني على السؤال أو التعبير عن مخاوفي، حين مدّتْ ذراعيها لتلتقطني من على الرصيف مرّتْ شاحنة تحمل مزارعين، أعرفهم جميعاً، أولئك الذين يعملون في مزارع الصراصير المنتشرة في ضواحي مدينة بيلونا من جهة الغرب، دفعتُ المرأة ثم رحتُ أركضُ خلف الشاحنة التي توقفتْ تماماً في منتصف الطريق، مدّ لي أحد العمال ذراعه فصعدتُ، كنتُ قد أصبحتُ شابّاً، أمتلك لغةً كاملة بعلامات الترقيم وحروف العلّة، وحتى بعلامات التعجب التي ستساعدني على الانخراط في هذه المجموعة. تقدمتْ الشاحنة، كنتُ أشاهد المرأة تبكي على الرصيف ونحن نبتعد، وحولها مجموعةٌ من مرتزقة المحلات التجارية يواسونها، كلما ابتعدتْ الشاحنة كلما تعالى صوتُها حتى أصبح شبيهاً بصواعق رعدية متواصلة بلا انقطاع. انطويتُ على نفسي ووضعتُ أصبعيَّ في أذنيّ، لم أعد أرغب في متابعة ما يحدث. حين توقفتْ الشاحنة ورفعتُ رأسي لمشاهدة

مزارع الصراصير رأيتُ رجلاً قادماً يرتدي ملابس بيضاء فضفاضة، عندها شاهدتُ المطر يهطل بغزارة، كان القادمُ، وهو يمشي باتجاهنا تحت زخاتِ المطر، يشبه مركباً شراعياً تحرك الرياح أشرعته البيضاء بعنف وهو يتمايل وسط الأمواج ويشق طريقه إلينا بصعوبة، حين اقترب من الشاحنة ناداني باسمي، كان له ذاتُ الصوت الذي للمرأة التي غادرناها قبل قليل، قال لي، وكنتُ أرتجفُ خائفاً:

- وصلنا إلى وجهتك أيها العجوز.

حين ترجلتُ من الشاحنة كانتْ يدي تمسك بعصاً غليظة أتوكأُ عليها، شعرتُ بألم رهيب يوشك أن يحطّم ركبتي اليسرى. أجلتُ النظر، كان الشارع خالياً من المارة والحوانيتُ مغلقة، رفعت رأسي فرأيتُ على واجهة البناية، التي أنزلوني أمامها، لافتةً تعتلي مدخلاً أثرياً لكهفٍ ما، كُتب عليها بخط أسود: "حانة بارافيليا"، دخلتُ وقد تحوّلتْ مخاوفي إلى حسّ قوي بالمغامرة، كانتْ الحانة خاليةً إلا من سيدة تقف خلف المَشْرب، ابتسمتُ وطلبْتُ منها بيرة "صديد" ذات التركيز العالي للكحول، ففتحتْ واحدةً وقدمتها إليّ، حين نظرتُ إلى وجهها عرفتُ فيها المرأة الثكلى التي تركتُها خلفي. لم تكن تتكلم، حين سألتُها عن حالها اكتفتْ بلغة الإشارة للرد عليّ، فهمتُ منها أن لغتها قد سُرقتْ بالكامل، حتى حروف العلة وعلامات التعجب. لم يكن هناك وقتٌ للتعاطف معها، الوقتُ يداهمني؛ لا بد أن أغادر الحانة خلال عامٍ من الآن على الأقل.

...

حانة "بارافيليا" هي أقدم وأهم حانة في عاصمة جمهوريتنا. يلتقي فيها جميع الساسة وقوادو المجتمع والإعلاميون، إذ يؤمها كل من يطمح لمنصبٍ سياسي، أو يسعى لإبرام صفقة تجارية، أو يبحثُ عن مادة إعلامية تغذي صحيفته في اليوم التالي. هي ملتقى شذاذ الآفاق قاطبةً من جميع طبقات المجتمع ومن مختلف الانتماءات السياسية والحزبية، وهي لقدمها تكاد تكون بدأتْ العمل بعد أعوام قلائل من تأسيس الجمهورية. أسسها السيد "أورام"، ربما في نهاية القرن الواحد والعشرين. في البداية كان السيد "أورام" نقيب المقامرين، بدأ تجارته بالقمار ثم استطاع أن يقنع أرباب تلك الصنعة الراقية حتى يُكَوِّنوا تجمّعاً للمقامرين ما لبثَ أن أصبح نقابة، هي النقابة الثانية على مستوى الجمهورية بعد نقابة "بشاعة" للمعماريين التي سبقتها بثلاثة أعوام.

حين تدخل الحانة، تجد المشرب أمامك مباشرة، بعد فسحة كبيرة تتوزع فيها طاولات لا تقل عن خمس عشرة طاولة بمفارش برتقالية منقّطة بالأصفر، ثم على يمينك طاولة كبيرة حذاء الجدار يأتلف حولها اثنا عشر كرسياً وهي الطاولة المخصصة للعب القمار، ثم في الجهة المقابلة، على يسار الداخل إلى الحانة، بابٌ يفضي إلى دورات المياه، وبجوار الباب آلة القمار التي أضيفت حديثاً لموجودات الحانة، وبجوارها آلة قديمةٌ لسماع الموسيقى. المساحاتُ بين الطاولات كبيرة تجعلك تشعر أنك في مفازة ولستَ في حانة، وهو ما جعلها مكاناً مناسباً لعقد

الاجتماعات والحديث بحريّة دون أن يسترق أحد السمع. أرضية الحانة من القرميد الأحمر الذي يغطيه زجاجٌ سميك، وجدرانها من الخشب المطلي باللون الأخضر العشبي، أما الأعمدة فمطلية باللون الذهبي. يوجد أمام المشرب طاولةٌ تمتد لمسافة سبعة أمتار تقريباً، وأمامها تسعة كراسي عالية تجعل من يجلس عليها يشعر وكأنه يُشرف على بقية الصالة ويراقبها من علو لا بأس به، وخلف المشرب رسمة زيتيةٌ لرجل أشيب في نهاية العقد السابع من عمره حليق الحاجبين، ويلبس نظارة مربعة وفي شفته السفلى نتوء يضفي على هيئته وقاراً، لا يُظهر الفنان الذي رسم اللوحة من ملابس الرجل إلا الجزءَ العلوي من جاكيتٍ برتقالي، وقميص أحمر وربطة عنق زرقاء فاتحة. هذه الرسمة للرجل الأنيق غير موقّعة، يقال إن من أنجزها هو التشكيلي العظيم "ثبور" فنان الجمهورية الذي واكب تأسيسها، وهو أحد أصدقاء مؤسس حانة بارافيليا الذي يظهر بكامل أناقته في هذه اللوحة؛ لوحة السيد "أورام" المعلقة خلف المشرب. هناك عدة صور أخرى تشغل الجدران الجانبية، كصورة "بعلزبول" الذي كان أحد أهم رواد الحانة عندما كان لا يزال مجرد عضو في حزب "شُبهات"، ربما في الفترة التي كان يشغل فيها "قواد عام" الحزب، إذ لم يكن فتياً في الصورة، ولا متقدماً في العمر، شغل ذلك المنصب لأكثر من عقد من الزمان، ثم أصبح نائباً لرئيس الحزب ليترأس الحزب بعد ذلك، وهي الطريق المؤدية حتماً إلى الفوز برئاسة الجمهورية، كان يظهر جالساً أمام المشرب، يلتفتُ نصف التفاتة وبيده كأس يبدو أنها مملوءة بنبيذ خلاصة الشوك ويرتدي

قميصاً بنفسجياً فحسب، وتظهر الصورة في خلفيتها عاملة الحانة "مومس" خلف المشرب، والتي أصبحت لاحقاً عاهرة رئيس الجمهورية. ثم هناك صور حديثة وقديمة لرواد الحانة من المشاهير تتوزع على الجدران، كصورة قديمة لمديرة الجامعة السابقة الدكتورة "تنبل"، وصورة قديمة للسيد "مأفون" رئيس مجلس الكلاب الضالة، أعلى سلطة تشريعية في البلاد. ورسمة قديمةٌ بألوان حائلة للسيد "أهريمان" مؤسس الجمهورية، وهي أيضاً غير موقّعة.

حين وصلتُ كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة والنصف بقليل، كانتْ الحانة ممتلئة عن آخرها، وكان الجميع مشغولين بتناول إفطارهم وبالنميمة. نظرتُ إلى الطاولة التي اعتدتُ الجلوس إليها مع أصدقائي، كانت قريبة من المشرب إلى اليمين قليلاً، تفصلها طاولة صغيرة عن طاولة المقامرين، كان وجه "نكران" عاهرتي السابقة هو أول ما شاهدتُه، وحولها ستة أو سبعة أصدقاء، حين وصل نظري إلى طاولتهم رفعتْ يدها مشيرة إلى مكان تواجدهم، أشرتُ إليها وتقدمتُ، أول طاولة على اليمين بقرب مدخل الحانة كانت طاولةً متوسطة الحجم عندما مررتُ بها كان يجلس إليها الدكتور "أسموديوس"، بذات البذلة التي كان يلبسها البارحة في البرنامج الحواري مع المذيعة "بنت زحالف"، وأعيد بثه صباح اليوم. ذات الملابس لا تعني إلا أنه يريد أن يجني بعض المكاسب الممكنة بعد ظهوره التلفزيوني البارحة على قناة لها نسبة مشاهدة عالية، ولا سيما من رواد

الحانة. غالباً ما تكون الشاشة التلفزيونية الوحيدة الصغيرة، المثبتة على الجدار فوق طاولة المقامرين، متروكة على قناة "قيم بيلونا"، وربما يتم الانتقال أحياناً إلى تلفزيون "أهريمان" الرسمي في الأعياد الوطنية، وفي جميع الحالات يكون الصوت مغلقاً إلا حين ينادى أحدهم على عاملة المشرب بأن ترفع الصوت قليلاً ليسمع ما لفت انتباهه من أخبار وتغطيات.

وقف الدكتور "أسموديوس" وحيَّاني، فلم أجد بدّاً من التوقف عند طاولته، كانتْ هناك سيدة تجلس مقابل الجدار، لم أكن أرى إلا رأسها الأصلع وقد وضعت قبعةً من القش بلون خربزي على الكرسي الذي يجاورها، حين التفتتْ عرفتها فوراً، كانت السيدة "لاقِيس" أختُ الدكتور "أسموديوس"، لا يخطئ الناظر حقيقة أنهما أخوين من أبوين مختلفين. كانتْ تكبر "أسموديوس" بعشر سنوات على الأقل، وكانت إحدى منسوباتِ صحيفة "أكاذيب"، لكنها غادرتها، قبل إفلاس الصحيفة بعدة أشهر، لتصبح عضواً في برلمان "أهريمان" الوطني. حييتها بحرارة، ثم صافحتُ الدكتور "أسموديوس"، وعدتُ للبحث عن طاولتي، كانتْ "نُكران" تراقبني، فأشرت إليها بأنني سأجلس قليلاً إلى هذه الطاولة فهزتْ رأسها.

الحق أنني كنتُ سعيدًا بلقاء "لاقِيس" بعد كل هذه السنوات، حين جلستُ بينها وبين أخيها، سألتها عن أخبارها، ثم قلتُ:

- توقفتُ مطولاً أمام مبنى صحيفتكم المهجور.
- متى؟ الآن؟
- نعم. وتذكرتُ أيام عمل والدتي فيها، وكذلك تذكرتُك، يا لها من مصادفة غريبة.

وأضفت بعد صمت:

- وسعيدة.

بدا أن كلامي قد أسعدها، والحق أنني كنتُ قد نسيتُها تماماً، فلا أذكر في أي قسم من أقسام الصحيفة كانتْ تعمل، ولا حتى أذكر أني شاهدتُ اسمها في أيِّ عدد قرأته من الأعداد السابقة أيام عمل والدتي هناك. كل ما في الأمر أنني كنتُ ألتقيها أحيانا مع والدتي في ذات المبنى، وأن رؤيتها اليوم أسعدني لأنه أعاد إليّ شيئاً من حضور والدتي الذي كان يملأ ذلك المكان المهجور.

- كنتُ أحضر في بعض الأيام إلى مقر صحيفة أكاذيب للقاء أختي، وكنتُ ألتقي بوالدتك هناك، على روحها الضياء والنور.

عقّب الدكتور "أسموديوس"، فوجهتُ حديثي إليه في ضربة استباقية قبل أن يسألني؛ وحتى أبدي اهتماماً مناسباً بظهوره التلفزيوني الحديث:

- شاهدتُك البارحة في برنامج "قيح المدينة". كان حضورك لافتاً.
- وما انطباعك عن كل ما دار في الحوار؟

"كل"، بدتْ لي مفردة متفائلة، كيف سأخبره أنني لم أسمع كلمةً مما قاله، وأنني كنتُ أتابع البرنامج لأستمتع بجمال المذيعة "بنت زحالف" ذاتِ البشرة الصدفيَّة لا أكثر ولا أقل. لكنني قلتُ، متعمداً أن يكون حديثي بطيئاً لأسهّل عليه مقاطعته وإكماله:

- لم يتغير رأيي فيك منذ أيام عملنا معاً في كلية "العلوم الإنسانية والفلسفة القذرة"، آراؤك منطقية وفكرك صائب، ولا تتسرع في إطلاق الأحكام.

هنا، وعلى غير المتوقَّع، قفزتْ السيدة "لاقِيس" للإدلاء بدلوها:

- نعم، نعم. "أسموديوس" منطقي ومنصف. أعجبني رده على سؤال اتهمتْكَ فيه المذيعة بأنك عنصري، وأرادتْ من "أسموديوس" أن يوضح للمشاهدين أثر وجود سياسي عنصري في مركز قيادي وهام في المدينة.

"أُف، عنصري! هل وصلت الأمور إلى هذا الحد؟، قلتُ لنفسي، لكنني واصلتُ النظر إليها باهتمام، ورحتُ أهزّ رأسي مع كل كلمة تخرج من فمها ذي الشفة الواسعة الجافة التي تضفي على وجهها جمالاً رغم تقدمها الظاهر في السن:

- لكن "أسموديوس"، عاد لمناقشة فكرتها التي طرحتها كمسلّمة حول عنصريتك، قال: لا يمكن التسليم بذلك، زاملتُ الدكتور إسِاج في

جامعة لوسيفر لسنوات، وعملتُ معه في ذات القسم، ولم يكن عنصرياً يوماً. ربما يكون أخطأ في التعبير لا أكثر، صحيح أن مثل هذا الخطأ لا يمكن أن يكون مقبولاً بأي حال من نائب محافظ العاصمة، والمرشح لعضوية البرلمان الوطني، لكنه أمر وارد الحدوث.

"أُف، منذ متى بتُّ مرشحاً لعضوية البرلمان، بعد تعليق عضويتي لسنوات"، قلتُ ذلك لنفسي أيضاً، وأنا أجلسُ وسط الأخوين الرائعين، ثم التفَّتُ إلى "أسموديوس" وابتسمتُ كفاصل إعلاني سريع، لأعود بوجهي إلى "لاقِيس" التي استمرتْ في نقل ما يُفترض أننا شاهدناه ثلاثتنا مكرراً صباح هذا اليوم:

- لقد أعجبني ما قال.

هكذا ختمتْ "لاقِيس" مداخلتها، ليلتقط أخوها طرف الخيط ويكمل كما هو متوقع منه:

- جميعنا يعلم ما كان يواجهه المتزوجون في بداية تأسيس جمهوريتنا، كانوا يُعدمون في ميدان ويلات وسط هتاف الجماهير التي كانتْ تقذفهم بالأحذية، وكان الأمر يُبث على تلفزيون "أهريمان" الرسمي مشفوعاً ببيان الجمهورية وقرار الهيئة القضائية التي أصدرتِ الحكم.
- قلتَ هذا في البرنامج!

ضحكتْ "لاقِيس"، ومالتْ نحوي كمن يريد أن يُفضي بسرٍ لا يريد لأحد أن يسمعه سواي، وكانت تفوح منها رائحة عطر البصل النيء المثيرة:

- لا، لا. هذا ما نستطيع قوله في مجالسنا الخاصة، وليس على قناة "قيم بيلونا" شبه الرسمية.

علّق الدكتور "أسموديوس" مبدياً تبرمه:

- هل ترى إلى أيِّ حضيضٍ وصلنا!

فضحكتُ ما جعلهما يضحكان أيضاً، لكنني سألتُ الدكتور "أسموديوس" عن أمر لم أكن أهتم بمعرفته، لكن لا بأس من قول شيء والحصول على معرفة جديدة:

- من كان ضيف "بنت زحالف" الآخر الذي ظهر معك في البرنامج؟
- أوه، إنه "أجدب"، عشيقُها.
- أووف.

دهشتُ لذلك، كان من الواضح أنه يصغرها بثمان أو تسع سنوات على الأقل، ثم قلتُ:

- وماذا يعمل؟
- مدير دار اللقطاء الوطنية الثامنة والثلاثين.

هذا ما قالته "لاقِيس" التي يبدو أنها تعرف الكثير. أردتُ أن أسألها، بوصفها عضواً في البرلمان، عن حقيقة كوني مرشحاً للعودة لعضوية برلمان "أهريمان"، لكن النادلة "بُقعة" كانتْ قد وصلتْ حاملةً وجبتيّ الأخوين، فوقفتُ مستأذناً للانصراف:

- عد إلى طاولتنا بعد أن ينصرف أصدقاؤك، سنبقى هنا لأننا نجتمع بهدف مناقشة أمر قد يهمك، وسينضم إلينا الدكتور "عاثر" مدير الجامعة الجديد، تعرفه؟

أجبتُ الدكتور "أسموديوس"، وأنا أستعجل الانصراف قبل وصول الدكتور "عاثر" حتى لا أضطر للبقاء ربع ساعة أخرى:

- نعم أعرفه، سأفعل.

ثم قلتُ لنادلة الحانة "بُقعة" التي كانت تضع الأطباق على طاولة الأخوين:

- حين تنتهين أريد أن تأتي إلى طاولتي فوراً، أكاد أموت جوعاً.

فضحكتْ، وضحك الأخوان، وانصرفتُ ضاحكاً أفكر فيما سيناقشانه معي بعد عودتي إلى طاولتهم.

***

[5]

شاهدتُ تمساحاً ضخماً يخرج من بحيرة طينية، كان الحلمُ ضبابياً تماماً، لكنني كنتُ أشاهد التمساح يتمايل على صوتِ طبولٍ تأتي من خلفه، ظهرتْ من خلفه رؤوس أعضاء فرقة الطبول المكونة من تماسيح أصغر حجماً، كانتْ تظهر من بُحيرة الوحل بالتتابع، ربما كانتْ تعزف شيئاً من مقطوعات فرقة الأناشيد الوطنية، فالإيقاع شبه عسكري، والتمساح يمشي بخطواتٍ واسعة، ويتمايل بشكلٍ لا يدل على أنه يشعر بالبهجة.

تجاوزتني جوقة التماسيح، عبروا من فوق جسدي، وحين التفَتُ كي أتمكن من متابعة مسيرتهم بسبب الفضول الذي انتابني لمعرفة إلى أين يتجهون، رأيتُ "حسناء" مقبلة نحوي، كانتْ تركض، ترتدي منامةً ذاتِ لون وردي باهتْ. حين وصلتْ سحبتني نحو بركة حليبية بجوار الطريق ودفعتني بكل قوتها فسقطتُ في البركة البيضاء. كنتُ أغوص إلى العمق، خفتُ، ورحتُ أصرخُ دون توقف، لكن صوتي بات يتحولُ إلى خيوط ملوّنة. عندما عدتُ أطفو إلى السطح كانتْ "حسناء" تجلس وسط حقلٍ تجلل أرضيته سنابل مدهوسة. كانتْ تجلس على كرسي أحمر بكامل ملابسها وكأنها تحتفل، لكن يديها تعملان بسرعة في نسج رداء يشبه خريطة بلاد معادية. حين اقتربتُ منها قلتُ بصوتٍ مبحوح لكثرة ما كنتُ أصرخ:

- من أين لك كل هذه الخيوط الملونة؟

التفتتْ نحوي، ودون أن تجيب عن سؤالي، دفعتْني لأسقط من جديد في ذات البركة الحليبية.

...

حين وصلتُ إلى طاولة أصدقائي كانتْ قد انصرفتْ صديقتنا "ميدوزا". حييتُ الجميع مبتدئاً بعاهرتي السابقة "نكران" التي جذبتني إليها وقبّلتني، غالباً ما تضع مزيجاً من العطور دفعةً واحدة، صافحتُ البقية: "جَلَبة" التي تجلس بجوار "نُكران" مباشرة، ثم يليها عشيقها السيد "لَطِيم"، ثم "جُحود" التي أصبح مقعدٌ بجوارها فارغاً بعد مغادرة "ميدوزا"، وأخيراً في كرسيين متجاورين يقابلان المشرب ويعطيان ظهريهما لمدخل الحانة: السيدة "انحلال" وعشيقها "فاسق".

- هذه الطاولة الآن تشكّل تقريباً ما تزيد نسبته عن 72.3% من مجمل أصدقائي في مدينة بيلونا.

ضحك الجميعُ، وعلّقتْ "جُحود":

- عملك في الحزب وفي المحافظة جعلك شغوفاً بالنسب المئوية.

واستمرتْ في الضحك.

سألتُها:

- أين ذهبتْ صديقتُنا "ميدوزا"؟
- ستعود.

كانتْ "نُكران" قد سحبتْ كرسياً من الطاولة المجاورة وأوجدتْ له مكاناً بجوارها مباشرة، فجلستُ بينها وبين "جَلبة" في اللحظة التي وصلت فيها النادلة "بقعة":

- مرحباً دكتور "إسِاج".

مدّتْ لي يدها بقائمة الطعام، لكنني كنتُ قد قررتُ سلفاً ما الذي سأطلبه:

- شطيرة أجنحة الضفادع المقلية، مع المقبلات. وبيرة "تحرّش"، وشكراً.

فانصرفتْ، أعدتُ النظر في أرجاء الحانة التي ازدادتْ ازدحاماً خلال الربع ساعة التي جلستُ فيها مع الدكتور "أسموديوس" وأخته، فقالتْ "نُكران":

- الحانة اليوم مزدحمة، وربما كنتَ أنتَ حديث الجميع هنا بعد تصريحك الغريب. كيف استطعتَ قول ذلك في مناسبةٍ عامة؟

لازلتُ عاشقاً لهذه السيدة المتسلطة، كلما كبُرتْ ازداد جمالها، فقد زادتْ عينها اليمنى انطفاءً، وتكاثرتْ الحبوب على خدها الأيمن حتى وصلتْ إلى رقبتها. تعرفتُ عليها هنا، في حانة بارافيليا، كنتُ في السنة قبل الأخيرة

من عملي في الجامعة، وكانتْ هي، حينئذٍ، في الرابعة والثلاثين من عمرها. أول ما لفتَ انتباهي إليها هي خلطة عطورها التي كانتْ، ولا زالتْ، تستخدمها؛ مزيجٌ من عطر الخوخ الفاسد وعطور الغابة المحترقة وعطر لعاب القطط النفّاذ. لم أكن أعلمُ حينها أنها كانتْ تهرب إلى هذه الحانة من خيبةٍ سابقة. دعوتُها ذاتَ يوم لشرب البيرة، وكنتُ أجلس، وحيداً، على المشرب وكانتْ تجلس بعدي بكرسيين. تبادلنا الحديث، وعرفتُ أنها عضو في حزب "شبهات" الوطني. كانتْ تلبس يومها بلوزة رمادية ذات كتف أيسر باللون الأصفر، وجينز أخضر. كنتُ قد شاهدتُها لمرتين أو ثلاث في الحانة، لكنها المرة الأولى التي أتجرأ وأدعوها لشرب كأس من البيرة. لم تستجب في بداية الأمر، وبقينا نتحدث عن بعد، لكن رجلاً وسيما له وجهٌ مجدور دخل فجأةً الحانة واتجه إلى المشرب وحياها ثم جلس بجوارها، فلم تجبه بشيء، ثم قامتْ وجلستْ بجواري من الناحية الأخرى، أصبحتُ بينها وبين الرجل الذي باتت تفصلنا عنه ثلاثة كراسي، جلس محدّقاً باتجاهنا لدقائق، ولم يطلب شيئاً ثم انصرف.

طلبتُ بيرة "تحرش" الخفيفة، وطلبتْ هي بيرة "صديد" عالية التركيز، أيقنتُ حينها أن وراءها حكاية يجب سماعها. وعرفتُ قبل مغادرتنا الحانة أن الرجل هو عشيقها السابق، أو بشكل أدق، الرجل الذي كان سيكون عشيقها:

- تعرفتُ إلى "نحيب" وهو صاحب مكتب معروف لغسيل الأموال يقع في وسط البلد. وهو عضو في حزب شبهات الحاكم. نشأتْ بيننا علاقة حب، أعجبتُ في البداية بوسامته، ولاسيما يده اليسرى المشلولة تماماً، وما يميز وجهه من آثار جدري من زمن الطفولة. كنتُ ألتقيه في أروقة الحزب وأعجبتُ به، دعاني للخروج معه ثم أصبحنا نقضي أغلب الوقت في حانة "وقاحة" التي كانت لصيقة مكتبه في بداية شارع شهداء الضلال، وبعد أن بدأتُ أغرقُ في حبه اكتشفتُ أن لديه عاهرة، تركتُه، لم أعد أذهب إلى حانة "وقاحة". أصبحتُ أترددُ على حانة بارافيليا منذ أسبوعين تقريباً.
- وهو يحاول استعادتك؟

قالتْ:

- نعم، حاول "نحيب" استعادتي لكن الأمر برمته قد انتهى بالنسبة إليَّ، لقد تركته خلفي. قال إنه هجر عاهرته لكن لا جدوى من ذلك.

استمرتْ اللقاءات بيننا بشكلٍ يومي، ثم انتقلتْ بعدها بأسبوع للعيش معي، وكانت علاقتها جيدة بـ "حسناء". أقول لنفسي أحياناً: ربما كانت رغبتها في معرفتي وتعمد الظهور معي جزءاً من استراتيجيتها في صد "نحيب" وجعله يفقد أي أمل في استعادتها. على أية حال، ما لبث "نحيب" أن اختفى من حانة بارافيليا، ولم أره بعدها.

...

- كيف استطعتَ تعريض مستقبلك السياسي لهفوةٍ كهذه؟

انتبهتُ لصوت "فاسق"، وهو يعقّب على تساؤل "نُكران" الذي بادرتني به حال انضمامي إليهم:

- جميعنا يعلم أن العامة، قبل الخاصة، ينبذون فكرة الزواج الشرّيرة، ويرونها تهديداً لقيم جمهوريتنا. كل ما حدث أن مفردة واحدة يتم الاختلاف عليها، ليس لأنها كانتْ خطأ، ولكن للظروف السياسية والاجتماعية التي قيلتْ فيها، وبسبب الانفلات الإعلامي الذي أصبح يتبنى القيم الشاذة ويحاول نشرها في مجتمعنا.

عقّبتْ "جحود" بملاحظة حول نقطة جوهرية لم أنتبه إليها من قبل:

- ألا تخشى أن ترفع جمعية أنصار الزواج قضية "تشارف" ضدك؟
- لم أفكر في ذلك حقيقة.

سكّتُ لبرهة، ثم سألتها:

- هل يحق لهم ذلك؟

هنا تدخلتْ حكيمة المجموعة، أو كما نسميها "الميزان الأخلاقي للمجموعة" السيدة "انحلال":

- التعديل الدستوري الجديد الذي قدمه "بعلزبول" إلى مجلس الكلاب الضالة، وأحالوه إلى البرلمان، يقترح إضافة فقرة إلى المادة السادسة

من الدستور والخاصة بحقوق الطوائف والأقليات والجماعات الإثنية.

- أُف، هل أصبح أتباع أنصار الزواج جماعة إثنية؟

سألتُ بدهشة، لأنني حقيقةً لم أتابع تفاصيل مشروع التعديل الدستوري الجديد، ولا أعلم شيئاً حوله:

- نعم، فالفقرة المقترح إضافتها ستدرج المتزوجين والمتزوجات ضمن الجماعات الإثنية، وسيضاف لذات المادة، أي المادة السادسة، فقرة أخرى تنص على حق كل منتمٍ لطائفة أو أقلية أو جماعة إثنية مقاضاة من يتعدى عليه بأي شكل من أشكال الاعتداء الجسدي أو اللفظي أو بالانتقاص منه في الوسائل الإعلامية أو الأماكن العامة أو الخاصة أو يشارك في أيِّ نشاطٍ أو وسيلةٍ تنال منه ومن حقوقه.
- أها، وصل الأمر إلى حقهم في المقاضاة.

ردتْ "انحلال" بلهجة الواثق:

- نعم، سيقر التعديل الدستوري الجديد قانون "التشارف" للنيل منك ومن أمثالك.

ثم ضحكتْ. كانتْ النادلة "بقعة" قد وصلتْ حاملة فطوري، وبدأتْ بوضعه على الطاولة. الحق أن ما أشارتْ إليه "جحود"، ووضعتْ له "انحلال" إطاراً مرجعياً دستورياً كان قد أقلقني. لا يمكن أن تتحدثَ من

فراغ، فهي ناشطة في مجال حقوق دعاة التلوث، وعضو جمعية حماية الغابات والحدائق العامة من خطر التشجير. تحب تربية الجعارير المنزلية، وتحلم بتكوين جمعية للرفق بها. مثقفة، تعيش مع "فاسق" منذ خمسة عشر عاماً، لديها مبادئ هي المعيار الأخلاقي لمجموعتنا، إضافة إلى أنها صديقة حزبية. والأهم من هذا أن تعليقاتها على قلتِها تكون موثوقة، وتستند في جميع أحاديثها إلى مرجعية لا يرقى إليها شك.

- لكنه لازال مجرد اقتراح لم يقره البرلمان.

هكذا قلتُ محاولاً التخفيف على نفسي من وطأة ما قالتْه "انحلال"، وتلمسّاً لأيِّ تعليق يصدر من أحد أعضاء مجموعتنا قد يخفف من توتري، لكن عشيقها "فاسق" جاء بالضربة القاضية:

- من يدري، ربما يقرونه الخميس المقبل، وتحاكم نهاية الأسبوع، خصوصاً أن السيدة "بنت زحالف" ستستمر في الهجوم عليك عبر "قيح المدينة"، حتى تقضي عليك.

ضحك الجميع، لكنني كنتُ أتشاغل بالتهام وجبتي من شطيرة أجنحة الضفادع والتي كانت مقبلاتها عبارة عن جنادب مشوية مضافاً إليها أرجل صراصير مقرمشة وذات مذاقٍ حار. لم أكن بحاجة إلى الإضافة التي تبرع بها "فاسق" والتي زادتْ من توتري، فهي تصدر من متحول جنسي له احترامه في الوسطين الاجتماعي والإعلامي. "فاسق"، عشيق السيدة

"انحلال"، وهو أكثر أعضاء المجموعة وسامة، بأنف قصير يشبه إلى حد بعيد أنف خنزير، وبأذنين قصيرتين تتجهان إلى الأعلى. شاعر ومثقف استقطبتُه للانضمام إلى حزبنا "قلاقل" لكونه خطيباً مفوهاً ولديه قدرة مميزة على الإقناع، وهو إضافة إلى ذلك فنانٌ تشكيلي متوسط الموهبة، له عدة لوحات تشكيلية لا بأس بها، أشهر لوحاته كانت قد عرضتها حانة بارافيليا على أحد جدرانها وهي بعنوان: "براءة لقيط" ويصور فيها طفلاً يطل برأسه الصغيرة مبتسماً من خلف سياج شائك لإحدى الدور الوطنية للقطاء ويقف وراءه معلم من معلمي الدار يظهر جلياً أنه يتحرش به. كانت لوحة لا بأس بها، لكن لم تلبث إدارة الحانة أن أزالتها من على الجدار بعد أقل من شهرين من وضعها لها هناك. يصر "فاسق" أن لوحته بِيعتْ لمالكةِ أحد بيوت الدعارة السيدة المعروفة "معاصي" التي، كما قال، تحب الفن الهادف، وتمتلك قلباً طيباً يحب الأطفال وكل ما يرمز إلى البراءة.

أثناء تناول الطعام، كان الصمتُ قد خيّم على طاولتنا، ولم يقطعه إلا عودة السيدة "ميدوزا" التي حيَّتني وجلستْ على كرسيها الخالي بجانب عاهرتها "جُحود" ثم قبّلتها. أيضاً، ميدوزا عضو في حزب قلاقل، وهي في الثلاثين من عمرها، تكبر عاهرتها "جحود" بعامين، كانتْ معروفة الأب، ولدتْ المسكينة لأبوين متزوجين، لكنها استطاعتْ أن تتخلى عنهما وتجد لها طريقاً في مدينة بيلونا بعد نضال استطاعت أن تفرض من خلاله احترامها على الوسطين السياسي والاجتماعي في المدينة، ثم تعرفتْ إلى

"جحود" العاهرة السابقة للسيد "باطل" نائب رئيس الجمهورية، والتي لا يقل نضالها عن نضال عشيقتها ميدوزا، فقد كانت "جحود" أصغر وأجمل نساء المجموعة، اسمها الفنّي هو "عِفّة" لأنها تكاد تكون الوريثة الشرعية والوحيدة لراقصة التعري "حياء" التي بدأ نجمها يأفل. من غير المنطقي أن تستمر "حياء" في التربع على عرش راقصات التعري بعد تقدمها في السن، وظهور "عفّة" التي كانت أصغر سناً، فلديها الجديد الذي تكشفه لجماهيرها المتعطشة بعد إفلاس "حياء". كانت "جحود" قصيرة تميل إلى السمار بعلامات بهاق تزيّن جسدها الذي لا يقل وزنه عن تسعين كيلوجراماً. نعم، لم يكن أمام "حياء" أي خيار، فلا جديد لتكشفه للجماهير، ولا جمال يضاهي جمال "عفة" الذي اخترق سماء صناعة العري في مدينة بيلونا كالصاروخ.

مرة، ربما قبل عامين، كانت "جحود" قد دعتني لحضور أحد عروضها الهامة، في ملهى "رِجس" أهم الملاهي في نهاية شارع شهداء الضلال، أتذكر أنني سمعتُ رجلين يجلسان إلى طاولة ملاصقة للطاولة التي كنت أجلس إليها، ويتحدثان، قال أحدهما للآخر:

- لا غرابة أن يستمر ملهى رِجس في استقطاب عشاق السهر ما دام في كل عام يقدم راقصةً بهذا الجمال الذي لا يوصف.

وأشار إلى "عفة" التي كانت لحظتها تؤدي رقصة "بكاء الملاعين" الشهيرة، فقال الآخر:

- انظر انظر، تكاد تصرعني بقعة البهاق الكبيرة التي تظهر أسفل ظهرها عندما تكشف عنها. إنها أشبه بخارطة "جمهورية أَهْرِيمان".

وأخذا يضحكان ويهتفان: عفّة عفّة.

...

قالتْ "ميدوزا" بعد أن انتهتْ من الهمس في أذن عاهرتها "جحود":

- هل فاتني شيء؟
- لا، ليس الكثير حقيقة.

عقَّبتُ بهذه العبارة المقتضبة، ذلك أنني بدأتُ أسأم من التناول المستمر لهفوة الأمس وتبريرها، إضافة إلى أن والدي "ميدوزا" كانا متزوجين، وهي معروفة الأب، وإن كانتْ لا تؤمن الآن بأفكار والديها الشاذة إلا أنني قدرتُ أن إغلاق هذا الموضوع بعد حضور "ميدوزا" هو الأفضل مراعاة لمشاعرها، وهذا ما لاقى استحسان الجميع بدلالة أن أي أحد منهم لم يزد شيئاً على ما قلتُه.

نظرتْ "ميدوزا" نحو السيدة "جَلبة" وصديقها "لَطِيم" وسألتْ:

- ما أخبار حزبكما؟ هل انضم إليه أحد.

ضحك لطيم، لكن "جلبة" قالتْ:

- ألا تنضمين إلينا؟
- وهل يجيز الدستور الانضمام إلى حزبين سياسيين في الوقتِ ذاته؟

هنا تدخلتْ مرجعنا الدستوري الجديد "انحلال" وقالت:

- لا، لا يذكر الدستور ذلك، وهذا ما غُفل عنه سابقاً، كما لم يتم طرحه في التعديلات الدستورية والإضافات المقترحة الجديدة.

فعادتْ "جلبة" للإجابة عن تساؤل "ميدوزا":

- نوشك أن نبلغ المائة عضو قريباً.

"جلبة" تبلغ من العمر السادسة والثلاثين، وهي مؤسِّسة حزب "حشرات الغد" الراديكالي كانتْ عضوًا سابقًا في حزب قلاقل، غالباً ما تظهر بملابس رياضية، وتعمل أستاذاً مساعداً في كلية "ترهات العلوم التاريخية والاجتماعية"، تُدرِّس مادة "تاريخ جمهورية أَهْرِيمان"، وهي بهذا أبعد ما تكون عن الغد وعن الراديكالية. انفصلتْ عن حزب قلاقل وكوّنتْ مع عشيقها حزباً هو حزب "حشرات الغد" الذي لا تتجاوز قاعدته الشعبية المائة شخص غالبيتهم من طلابها وطالباتها ومعارفها هي وعشيقها "لطيم" الذي يكبرها بعام واحد. انضمتْ لمجموعتنا عن طريق عشيقها الذي يعمل نائباً لرئيس تحرير وكالة الأنباء الوطنية "فاسد". وهو، أي "لطيم"، صديقي منذ كنتُ رئيس لجنة القبول في الجامعة، كنتُ قد أجريتُ معه مقابلة شخصية للنظر في طلبٍ تقدم به للتدريس في جامعة

لوسيفر، أصبح بعدها معيداً في كلية "بهتان للإعلام"، لكنه ترك العمل في الكلية قبيل نهاية عامه الأول وانخرط في العمل بوكالة الأنباء الوطنية، ثم تعرف إلى "جلبة" أثناء حملتها لحشد مؤيدين وأعضاء للحزب الوليد، أعجب بها، بغض النظر عن مبادئ الحزب التي ربما لم يكن يؤمن بها، لكنه آمن بـ "جلبة" وأصبح عضوًا مؤسسًا معها لحزب حشرات الغد الراديكالي. ولا يزال يناضل مع عاهرته في سبيل تسويق حزب لا يتوقع أحدٌ أن يفوز بأول مقعد له في البرلمان قبل ألف وخمسمائة عام قادمة على الأقل، لكنهما مستمران في الكفاح الراديكالي، وفي محبة بعضهما، إلى ما لا نهاية.

***

[6]

منتصف الليل وسط باحة تشبه باحة سجن، جُدرٌ عاليةُ بلون أسود تجعلُ من المستحيل رؤية شيء غير السماء السوداء الكابية بلا قمر ولا نجوم، محكومٌ عليَّ بالإعدام، وقفتُ تحتَ حبل المشنقة ساكناً، لا أحد معي في الباحة سوى اثنين؛ الجلاد الموكل بتنفيذ الحكم، وحسناء كشاهد وحيد على ما يحدث. بقينا لساعة دون أن نتحدّث، ثم رأيتُ حسناء تلقي بثوبها الفضفاضُ عن جسدها، تبينتُ، حين أصبحتْ عاريةً تماماً، أنها حامل، كانتْ تتحسّسُ بطنها المكوَّرةُ بيديها وتنظر إليَّ. بقينا لساعة أخرى، وكان الجلادُ صامتاً كأنه الموت. حين تقدّم خطوة نحوي ليبدأ تنفيذ الحكم شاهدتُ كائناً ضخماً بأجنحة لا حصر لها يحطُّ في الباحة الكابية، اتجه مباشرةً إلى حسناء، وأخذ يتحسس بطنها، ثم بأصابع ذات أظافرَ نحاسيةٍ انتزع طفلها الذي يوشك أن يولد، كانتْ حسناء تضحك وكأنه يدغدغها. حين قطع الكائنُ الضخم الحبلَ السري قذف بالمولود نحو الأعلى فتحوّل إلى نجمة متوهجة أضاءت السماء، حين عدتُ ببصري إلى الباحة كانتْ حسناء ملقاة على الأرض وهي تنزف، وكان الكائن قد اختفى. تقدم الجلاد منّي خطوة أخرى، ثم ثالثة، ليشير بإصبعه إلى روحي التي استجابتْ لإرادته وغادرتْ جسدي على الفور، كنتُ أتابعها تطفو نحو السماء وهي تزداد توهجاً كلما صعدتْ، حتى إذا وصلت إلى النجمة التي سبقتها قبل لحظاتٍ اتحدتْ بها، ثم انطفأتْ كشمعةٍ فاجأتها عاصفةٌ غير متوقعة. كنتُ بلا

روح، مشيتُ عبر جسد الجلاد المتجمّد أمامي، ثم دخلتُ إلى جسد حسناء البارد، فاستيقظتُ.

...

طلبتُ زجاجة أخرى من بيرة "تحرش"، فجاءتْ بها النادلة "بقعة"، وضعتها أمامي ثم انثنتْ لتجمع الأطباق وانصرفتْ. كنتُ أحدّق في الفراغ، كانت السيدة "جلبة" قد استأذنتْ وأشارتْ إلى عشيقها "لطيم"، فانسحبا للجلوس وحيدين على الطاولة التي كانت قد فرغتْ للتو والتي تفصل بيننا وبين طاولة القمار، أما البقية فكانوا يتحدثون أحاديث جانبية ويشربون البيرة، باستثناء "نكران" التي كانتْ تجلس بجانبي وأمامها زجاجة نبيذ "فضلات الحملان" القوي، كعادتها، مشروبٌ قوي، وعطور قوية، "نكران" عبارة عن خليط من كل شيء:

- تعجبك؟

قلتُ لها:

- من؟

قالتْ:

- النادلة!

فوجئتُ بما ذهب إليه تفكيرها. صحيح أن "بقعة" جميلة بوجهها الذي تزينه بقة صدفية تمتد من جانب أنفها إلى أذنها مروراً بخدها الأيسر، وربما كانتْ سبباً في اختيار أمها لهذا الاسم، وهي، إضافة إلى تلك البقعة الخشنة المميزة، عرجاء، مشيتها بين الطاولات وهي تعرج تبدو مثيرة وتضفي على وجودها في المكان إحساساً أنثوياً رقيقاً:

- لا، لا. لم أكن أنظر إليها أصلا. كنتُ أفكر في "حسناء".
- ما بها؟

سألتْني "نكران" باهتمامٍ واضح، وهي التي سكنتْ منزلي لأكثر من ثلاث سنوات حين كانتْ عاهرتي، وكانتْ علاقتُها بـ "حسناء" مميزة:

- أنا قلقٌ بخصوص وضعها الصحي. لم تعد تتحدث معي إلا نادراً. وتشعر بآلام متفرقة، ولا تنام إلا قليلاً.

تناولتْ كوبها والتفتتْ بكامل جسدها نحوي:

- لا شك أن استحمامها اليومي أدى إلى تدهور صحتها، نصحتُها كثيراً بتجنب تلك العادة السيئة لكنها لم تكن تستجيب. قلتُ لها إن عليها أن تحتفظ بطاقة جسدها كاملة بدل إهدارها تحت الماء كل يوم، لكنها كانتْ تنظرُ إليَّ باستغراب.

رشفتْ جرعة أخيرة من نبيذ فضلات الحملان، ثم وضعتْ كأسها على الطاولة وملأته بكامل ما تبقى من نبيذ في الزجاجة، ثم حملتَه من جديد ورشفت منه رشفة كبيرة، وقالتْ:

- لا أدري كيف يؤمن الناس ببعض الأفكار الشاذة؟ كيف لا يرون الطريق إلى القيم العليا واضحاً؟ وكيف يهدرون أوقاتهم في ممارسات تضر بصحتهم الجسدية وبسلامتهم النفسية؟

كنتُ صامتاً أستمع إلى ما تقوله "نُكران"، التي كانت إذا شربتْ وبدأت تسكر تتدفق من فمها الأفكار الجميلة والحكايات الرائعة بطريقة عفوية. سألتني فجأة:

- هل تصدّق؟

قلتُ:

- ماذا؟

قالتْ:

- "هلوسات"، تعرفها؟

أجبتُ:

- لا، لم يسبق لي أن تشرفتُ بمعرفتها.

- زميلتي في حزب "شبهات"، سكرتيرة الحزب لشؤون العبث. جاءتْ إلى هنا أكثر من مرة. ربما لم تصادفها فحسب.
- ربما.
- المهم، نشبتْ بيني وبينها معركة كلامية بداية هذا الأسبوع، كان ذلك يوم الخميس أول أيام العمل الأسبوعي.

قلتُ، لأجعلها تستمر في سرد حكايتها دون توقف:

- لماذا؟
- كانتْ تحاول جمع بعض الأصوات في الحزب لإقناعهم وجعلهم يصوتون ضد رفع الضريبة من 20% إلى 25%، تصور ذلك؟

قلتُ:

- وهل يفكر أعضاء الحزب في رفع الضريبة؟ وأي الضرائب التي سترفع؟
- ضريبتا الدخل والقيمة المضافة، ستقدم الحكومة مقترحاً للبرلمان لرفعها إلى نسبة 25%، أي بزيادة 5% إضافية. تصور أن معنا في الحزب الحاكم من لا يفهم الآثار الإيجابية لرفع الضريبة. لم أسكتْ، أخبرتها أنها على خطأ. شرحتُ لها فوائد رفع الضرائب على الأصعدة الثلاثة: السياسية والاقتصادية والاجتماعية. لكنها لم تقتنع ووجهتْ لي أقذع الألفاظ.

اكتفيتُ بالضحك، ذلك أنها كانتْ قد سكرتْ تماماً، وكانتْ غاضبة في الوقت ذاته، لكنها لا تزال تعي ما تقول:

- قالتْ عنّي "شريفة"، تصوّر ذلك، وتعمدت رفعَ صوتها لتُسمع كل من كان حاضراً ذلك اليوم في مقر الحزب.
- وهل سكتِّ لها؟
- لم يكن هناك حاجة للرد عليها، كل من في الحزب يعلم بشأن سمعتها السيئة، ويتحاشونها. تخيل لم يتحرش بها أحد منذ عامين!، وليستْ عاهرةً لأي رجل منذ انضمامها للحزب. لا، لا حاجة للرد على سيدة كهذه، سلوكها المشين يكفي للرد على ما ترمي به الآخرين.
- وماذا قلتِ لها بشأن فوائد رفع الضرائب؟
- كان لفيفٌ من الحضور في مقر الحزب قد تجمع حولنا، خصوصاً بعد سماعهم لكلمتها النابية "شريفة"، علم الآخرون أن المعركة توشك أن تبدأ، لكنني أردتُ أن يكون تجمعهم فرصة لإعطائهم درساً حول أهمية رفع الضريبة، ولأفوّت عليها مساعيها في حشد المعارضين للفكرة.
- وكيف كان الدرس؟

نظرتْ إليّ، ثم أرادتْ أن تصب لنفسها كأساً إضافية من زجاجة نبيذ فضلات الحملان التي كانتْ فارغةً تماماً، ما جعلها تلتفتُ للبحث عن حقيبة يدها وتخرج منه ظرفاً أحمر صغير، مرسومٌ عليه ذبابة حمراء، صبَّتْ ما فيه من جرعة الكوكائين، فَرَدتْها على ورقة صغيرة ومالتْ برأسها

إلى الطاولة وشمتْ الجرعة في لحظة، كانتْ محترفة في فعل كل شيء، ثم قالتْ، وكأنها تجعل منّي تلميذاً إضافياً لدرسها الذي ألقتْه بداية الأسبوع لمجموعة من الملتفين حولها قرب سكرتارية حزب "شبهات" الحاكم:

- رفع ضريبة الدخل، وضريبة القيمة المضافة يعود بآثار إيجابية لا حصر لها على الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فعلى الصعيد السياسي تجعل من الحزب، وعلى رأسه رئيس الجمهورية، أداةً للإنفاق الوطني، فيستطيع تنفيذ مشاريعه الخاصة، حتى وإن بدا للبعض أنها لن تعود بالنفع مباشرة على المواطنين إلا بعد ألف عام، إلا أنها ضرورة لرفد الاقتصاد الوطني.
- دافع الضرائب يشارك في اتخاذ القرارات.

هذه الإضافة التي قلتُها كانتْ مجرد تسجيل تواجد، وإعلام بأنني منتبه للدرس. فركتْ "نُكران" أنفها، ثم أكملتْ:

- أما على الصعيد الاقتصادي، فالضرائب المرتفعة تساهم في ازدهار الاقتصاد الربوي، وزيادة القروض البنكية الربوية للأفراد والشركات على السواء، كما تسهم في تشجيع الممارسات الاقتصادية الجيدة، كالرشاوي والقمار، وتشغيل حوانيت الرهن، وازدهار العمل في صالات المراهنات، وتزيد من الاحتكار، وتساهم بشكل غير مباشر في زيادة الدخل الوطني من خلال مؤسسات وشركات غسيل الأموال.

سكتتْ، لكنني هذه المرة التزمتُ الصمت، فواصلتْ إلقاء درسها الضريبي الذي تسببت السيدة "هلوسات" في جعلي أدفع ثمنه أيضاً من خلال سماعه في حانة وفي يوم إجازة:

- بالنسبة للآثار الاجتماعية لرفع الضرائب فإنها تستعصي على الحصر، انتشار البغاء، وزيادة أعداد المتسولين ما يعني انخفاض البطالة، وهي سبب في القضاء على الطبقة الاجتماعية الوسطى التي هي سبب كل رذيلة، والباعث على كل علّة. كما أن زيادة الضريبة تساهم اجتماعيا في إضعاف إمكانية عودة تكوين الأسر في ظل توسع قاعدة جمعية "أنصار الزواج". إنها ببساطة تمنع من أن نعود إلى المربع الأول، فتعود الأسرة بنظامها الأبوي التسلطي لتهدد قيمنا العليا. لم نتخلص من ذلك النظام الاجتماعي القمعي البائس إلا بعد نضال طويل وشاق.

توقفتْ، وأرختْ ظهرها على الكرسي. لم أعلق. لكنني لاحظتُ أن "جحود" قد بدأتْ تتململ في جلستها، ولا سيما أن "ميدوزا" تشاغلت عنها بالانخراط في حديث جانبي مع "انحلال" وعشيقها "فاسق" قلتُ، موجهاً حديثي إلى جحود، المشهورة أيضاً باسم "عفّة":

- أتعلمين يا "جحود" ما الذي يجعلني أضحك أحياناً عندما أتذكرك وأنا أسير في الطريق؟
- ماذا؟

- ما يضحكني حقّا هو أن الشعب انتخب رئيس جمهوريتنا "بعلزبول" وكان نائبه، عشيقك السابق، السيد "باطل"، ثم خضع نائب الرئيس لعملية تحول جنسية ليصبح السيدة "باطلة" نائبة رئيس الجمهورية، لا بد أنه، أعني أنها، لا تزال تحبك وتريد استعادتك خصوصًا بعد أن عرفتْ أنك مثلية.

لم تعلّق بكلمة، ولم تبتسم، لكن عشيقتها "ميدوزا"، والتي يبدو أنها سمعتْ لسوء الحظ ما قلته للتو، وقفتْ وهي تنظر نحوي بشيء من الغضب، وجذبتْ "جحودَ" من يدها، لتنصرفا.

كان السيد "فاسق" يضحك، وقال لي، وهو يتابع "ميدوزا" تجر عاهرتها "جحودَ" من يدها وتخرجها من حانة بارافيليا:

- يا لك من لئيم.

بدت لي مجاملة لطيفةً منه، فضحكتُ وضحك هو وعاهرته الراديكالية "جَلَبة" مؤسسة حزب حشرات الغد، بينما كانتْ "نُكران" غائبةٌ عن الوعي تمامًا.

[7]

لم أكن أدركُ أنني أمام فارَّين يتعاركان في مستنقع خارج المدينة، كنتُ قد سمعتُ سيارات الشرطة تجوب الشوارع وتحذر من خطورة سجينين هاربين. لم أكترث، لكن قدميّ قادتاني في هذه الظهيرة إلى هذا المستنقع لأجد العراك يوشك أن ينتهي، فبرغم الأصفاد إلا أن المعركة كانتْ دامية، حين انتهتْ بمقتل أحدهما، قام المنتصر بجمع الحطب، ثم بحث عن حجر حاد الأطراف وأخذ يقطّع أطراف المهزوم، لم تعقه الأصفاد التي تكبّل يديه من أداء مهامه، ثم أشعل ناراً وبدأ في شواء كل قطعة يفصلها عن جسد صاحبه ويلتهمها بتلذذ، كنتُ جالساً دون خوف، ورغم أن السجين الذي مات بقي حياً وكان يرمقني بنظراته إلا أنه لم يتحدث معي، كنتُ كائناً غير مرئي بالنسبة إليه، لعله كان ينظر إلى شيء خلفي. حين التفتُ كانتْ حسناء قادمةً، جلستْ بجواري، وبعد أن تأملتْ المشهد، توجهتْ نحوي وقالتْ:

- لماذا لا تشارك في حفلة الشواء هذه، ألستَ جائعاً؟

قلتُ لها:

- أليس هذا الجسدُ لآدمي؟

تنهّدتْ، ثم قالتْ بصوتٍ يملؤه اليقين:

- إنه جسد سجين، السجين حين يغلقون عليه زنزانته، ومنذ الليلة الأولى، لا يعودُ آدمياً.

...

كان "فاسق" قد غادر هو وعاهرته "انحلال"، وكنت أشرب الزجاجة الرابعة من بيرة "تحرش" حين سمعتُ صوت التلفزيون يرتفع قليلاً. كانتْ السيدة "جَلبة" وعشيقها "لطيم" لا يزالان جالسين على الطاولة التي انتقلا إليها وتفصل بيننا وبين طاولة القمار. التفتُّ لأشاهد ما يبثُّ على الشاشة، قناة "قيم بيلونا"؛ كان تصريحاً لرئيس دولة مجاورة: "لا يوجد شيء اسمه مثلية جنسية، والمتحولون جنسياً مرضى يجب علاجهم، يجب أن نلتزم بالأعراف والتقاليد، الرجل رجل والمرأة امرأة، والأم أم والأب أب". من الجيد أن "فاسق" قد غادر قبل أن يشاهد هذا التصريح الفج.

بدأتْ "نُكران" تتململ في كرسيها، عادتْ للوعي بما حولها، فسألتُها عن حالها. أجابت:

- بخير
- أطلب لك شيئاً.
- لا، أنا بخير.

عدتُ لأجول ببصري في الطاولات القريبة منّي، فرأيتُ الدكتور "أسموديوس" لا يزال على حاله جالساً يشرب بيرة تحرش ويقهقه،

أصبحتْ طاولته تضم ثلاثة أشخاص آخرين، أخته "لاقِيس"، بالإضافة إلى شخص يجلس على كرسيي، الذي كنتُ أجلس عليه، لكنني لم أعرف من هو، وآخر لا أراه بوضوح، كان يجلس وظهره إلى المشرب ووجهه ناحية باب الحانة. تذكرتُ أنني قد وعدتُه بالعودة إليهم. شربتُ آخر ما تبقى من زجاجتي، والتفتُّ إلى "نكران":

- طلب مني الدكتور "أسموديوس" أن أعود إلى طاولته، قال إنه سيطلعني على أمر قد يهمني.

رفعتْ رأسها نحو طاولة "أسموديوس"، ثم عادت إليَّ ببصرها:

- إذن أنت لا تعرف؟

قلتُ:

- وما الذي لا أعرفه؟
- "أسموديوس" من أهم أعضاء حزب "شُبهات"، هو وأخته.
- إذن؟

ابتسمتْ، ثم عادتْ ببصرها إلى الطاولة، وحملتْ كأسها التي كانت فارغةً تماماً، ثم التفتت إلى المشرب، فبادرتها:

- لا، لن تشربي شيئاً، سننضم إلى طاولتهم، ثم هناك يمكنك طلب ما تريدين.

أعادتْ الكأس الفارغة إلى الطاولة، ثم قالتْ ساخرةً:

- حزب شُبهات الأبدي والتاريخي، وقائده العظيم، ومن سيأتي بعده من قادة عظام لهذه الجمهورية، والذين لن يكونوا إلا من سلالة هذا الحزب الأبدي والتاريخي، يفكرون في الانقضاض على الدستور ونقضه بالكامل.
- أُف، دستور " أهريمان "؟
- نعم، دستور مؤسس الجمهورية الأبدية والتاريخية.

وراحتْ تضحك.

رفعتْ رأسها مرةً أخرى لتطيل النظر إلى طاولة الدكتور "أسموديوس"، وأشارتْ بإصبعها إلى التجمع الذي كان جالساً إلى تلك الطاولة وقالتْ:

- هناك، على تلك الطاولة الأبدية والتاريخية، في هذه الحانة الأبدية والتاريخية أيضاً، تُعاد صياغة دستورنا الذي لن يعود بعد اليوم أبدياً ولا تاريخياً.

كانت تتحدث بسخرية تغلف مرارة ناتجة عن معرفة لم تكن لديَّ، لهذا قلتُ:

- المزيد من الإيضاح؟
- "لاقِيس" عضو البرلمان، وهي وأخوها عضوا الحزب الحاكم شبهات، وأنا كذلك عضوة في ذلك الحزب اللعين.

ضحكتْ ثم أضافتْ:

- جميعنا يعرف أن دستورنا لم ينشأ عن جمعية تأسيسية في بداياته بل باستفتاء شعبي بعد أن وضعه "أهريمان" بنفسه، لا بلجنة دستورية حكومية، ولا بجمعية نيابية. ويدور في حزبنا الآن نقاشٌ مطول حول وجوب إعادة كتابة الدستور كاملاً، بدءاً من التشكيك في الأسلوب الذي نشأ به الدستور، وليس انتهاءً بنسف المواد الأساسية فيه. وكل هذا تحت وطأة ما يُسمى بالضغوط الدولية المحيطة بنا.

انتماء "نُكران" لحزب شبهات كان مفيداً لي على طول الخط، فهذه التعديلات الدستورية ما هي، إذن، إلا مجرد بداية لإعادة صياغة الدستور بكامله.

- ولكن ما علاقة "أسموديوس" بكل هذا؟
- سيكون زميلك الجامعي عضواً في مجلس الكلاب الضالة أعلى سلطة تشريعية في البلاد، ثم بطريقة غير مقصودة سيكون فجأة أول رئيس "مُنتَخب" للمجلس التأسيسي لكتابة الدستور. ثم سيعيد كتابته بأظلافه بعد ذلك على تلك الطاولة بالذات.
- فهمتُ الآن.

حين التفتُّ مرة أخرى إلى طاولة الدكتور "أسموديوس" كانتْ لا تزال على حالها، وكانت النادلة "زواحف" هذه المرّة هي من يحمل أربع زجاجات

بيرة وتوزعها على طاولته. لا يزال الحديث مستمراً إذن، قلتُ لنفسي، ثم وجهتُ الحديث إلى "نكران":

- لماذا لا ننضم إليهم؟
- لقد شبعتُ من هذا الهراء.

قالتْ ذلك، لكنها بدأتْ تبحث عن حقيبة يدها التي كانت كإبرة في كومة قش وسط غابة من زجاجات النبيذ والبيرة التي تملأ الطاولة. أخرجتْ من الحقيبة ثلاث زجاجات عطر، وأقلام التبرج، وبدأتْ تستعد، بينما كنتُ أسوي ربطة عنقي، ثم وقفتُ. مددتُ إليها يدي فتناولتها، واتجهنا إلى طاولة "الدستور الجديد".

...

وقفَ الدكتور "أسموديوس" حين شاهدنا مقبلين إلى طاولته، وبدأ في البحث عن كرسيين إضافيين، ثم أشار إلى نادلة المقهى وطلب منها أن تخفض صوت التلفزيون الذي كان قد انتهى من بث تصريحات رئيس الدولة الجارة، ليبث بعدها أغاني وطنية، وكأنها هي الردّ الحاسم على كل من يهدد قيم الجمهورية، سواء من معارضي الداخل، ولا سيما أعضاء حزبيّ: "قلاقل المعارض، وحشرات الغد الراديكالي" الذي لا يعلم بوجوده إلا السيدة "جَلبة" وعشيقها "لطيم"، أو من أعداء الخارج الذين يتكاثرون بسرعة فائقة كل يوم.

جلستْ "نكران" بجانب الدكتور "أسموديوس"، وجلستُ بعدها. كان بجواري الرجل الذي لم أستطع مشاهدة وجهه حين كنتُ على طاولتنا، وكان وجهه غير مألوف بالنسبة إليَّ. هنا قال الدكتور "أسموديوس":

- الدكتور "عاثر"، مدير جامعة لوسيفر.
- جامعة بعلزبول، قريباً.

علق الدكتور "عاثر"، إذ يبدو أننا سنمر بمرحلة تغييرات شاملة قريباً. عاد الدكتور "أسموديوس" لاستكمال التعريف بالحاضرين:

- السيد "حلزون"، صاحب مكتب ثقة للاحتيال، وعضو حزب شُبهات.

ثم أشار إليّ:

- الدكتور "إسِاج"، نائب محافظ العاصمة، وعضو حزب قلاقل.

ولم يعرفهم بالسيدة "نُكران"، ما يعني أن مدير جامعة "بعلزبول قريباً" هو أيضاً عضو حزب شبهات الحاكم. وما يعني بشكل عملي أنني المعارضة الوحيدة على طاولة الشبهات هذه، التفتُّ للبحث عن السيدة "جلبة"؛ لأطلب منها الانضمام إلينا لكنها كانتْ تغادر مع عشيقها في تلك اللحظة، حين أشرتُ إليها أشارتْ إليَّ محيية، ثم انصرفتْ. من الواضح أنها فسرتْ إشارتي بأنها إلقاء تحية لا أكثر، ولم تفهم أنني كنتُ أدعوها للجلوس معنا، وهذا الذكاء، الذي كانتْ تتميز به في فهم الأشياء وتفسير المواقف هو

السبب الحقيقي، بلا شك، في أن عدد أعضاء حزبها لم يتخطَ المائة عضو منذ سنوات.

...

- كنّا نناقشُ التعديلات الدستورية التي طلبها الرئيس.

قالت "لاقِيس"، وكانتْ تتفحص الأوراق التي أمامها، فأجبتها، وكأنني تفاجأتُ بما تقوله:

- ودعوتم معارضاً للجلوس إلى طاولتكم.

فضحك الجميع.

عقّب السيد "حلزون" قائلاً:

- هذا ما سيعطي للتعديلات الدستورية المرتقبة موثوقية أكثر.

هذا التعقيب هو ما جعلني أؤمن تماماً بأن "حلزون" هو مالك مكتب للاحتيال، وأن اسمه "ثقة"، فأول قواعد الاحتيال هو أن تردد عكس ما تؤمن به لتنجح في عملك.

- كنتُ أظن أن تعديل المادة الدستورية الرابعة هو آخر تعديل دستوري في جمهوريتنا، ذلك التعديل الدستوري، الذي لم يسبقه إلا تعديلٌ

وحيدٌ نشأتْ بعده جامعة لوسيفر، أعني جامعة "بعلزبول" قريباً، لكن يبدو أن التعديلات ستتوالى.

كان امتعاض الدكتور "عاثر" واضحاً، إذ لم يقبل بسخريتي من مسمى الجامعة الجديد. لكنه بقي صامتاً، فأرادتْ "لاقِيس" أن تختصر النقاش بعرض موجز لأهم المواد الدستورية المراد تعديلها:

- أول مادة، من المواد، التي تقدم رئيس الجمهورية بطلب..

قاطعتها "نُكران"، فبدا واضحاً أنها لازالتْ مخمورة قليلاً:

- الأبدي والتاريخي، رئيس الجمهورية الأبدي والتاريخي.

لم تلتفِت إليها "لاقِيس" وواصلت:

- أول مادة هي المادة السادسة، إذ تُدرج، التعديلات، في فقرة منها المتزوجين كمجموعة إثنية وتُعرفهم بناء على ذلك، ما يعني أنها تُقر دستورياً أحقيتهم في نيل حقوقهم كمواطنين. ثم في الفقرة التالية في ذات المادة تُقر قانون "تشارف" الخاص بحق مقاضاة من يتعدى على الطوائف والأقليات والجماعات الإثنية من قبل المتضررين.

لا جديد، كل هذا كانتْ قد أخبرتنا به "انحلال" قبل ساعة، لهذا كان لا بد من مداخلة تبين أنني أجهل هذا التعديل تماماً بل ومتفاجئ به:

- ولكنها مادة من مواد القانون الأساسي، كيف يتم اقتراح تعديلها.

ردتْ "لاقِيس" برد مختصر:

- صوَّت أعضاء مجلس الكلاب الضالة على تعديلها، ومرروها للبرلمان.
- أها.

ثم واصلتْ:

- المادة التالية هي المادة الحادية عشرة، الخاصة بجعل رأي البرلمان في رفع أو خفض الضريبة بكافة أشكالها رأياً استشارياً لا أكثر، وكانت من قبل تُقترحُ من أعضاء الحكومة ثم تُعرض على البرلمان لإقرارها.
- ولكن كيف يصبح أمر رفع الضرائب أو خفضها شأناً خاصاً بالحاكم فقط؟ من يدفع الضريبة يشارك في القرار، هذه أبسط قواعد إقرار النظام الضريبي في كل دول العالم حتى المتخلفة منها والرجعية.

حين علَّقتُ، قال السيد "حلزون":

- يبدو أن الدكتور "إسِاج" يمثل هنا المعارضة فعلاً.

حينها عرفتُ إلى أي حد تتناسب سرعة تفكير السيد "حلزون" مع اسمه، لكن "لاقِيس" تجاهلتْ تعليقه وردّتْ على سؤالي:

- يريد الرئيس أن يكون أمر الضريبة وما يتعلق بها أمراً مرناً.

تتلاعب به الحكومة كيف تشاء.

هكذا عقَّبتْ "نُكران"، وهي المؤمنة بأن رفع الضرائب أمر إيجابي تحت أيِّ مبرر كان، كما أنها عضو في الحزب الأبدي والتاريخي كما تصفه.

بدا أن "لاقِيس" كانتْ تعرف ما ستقوله زميلتها في الحزب، إذ من الواضح أن نقاشاتٍ كثيرة دارت في أروقة شبهات قبل أن يظهر أمر تعديل الدستور إلى العلن، لهذا استمرتْ في عرض المواد المراد تعديلها:

- كذلك وصلتْ إلينا في البرلمان المادة الثالثة والعشرون، وهي من المواد التي مررها مجلس الكلاب الضالة إلينا، والتي تنص على أن: يكون تغيير اسم المولود حقاً لوالدته بعد بلوغه سن الثانية عشرة وانتهاء تعليمه الإلزامي في دور اللقطاء الوطنية. ينص التعديل الجديد على ما يلي: يكون تغيير اسم المولود حقاً له هو فقط بعد حصوله على وظيفة، أو منصب اعتباري، على ألا يقل سن المتقدم بطلب اسم خاص به عن واحد وعشرين عاماً، وأن يتناسب الاسم الذي يختاره مع ضوابط الأسماء المحددة في "جمهورية أَهْرِيمان" عبر النظام الإلكتروني الوطني "زيف".

قلتُ:

- تحت أي ذريعة سيكون هذا التعديل؟

رد الدكتور "أسموديوس":

- تحت ذريعة أن النظام الوطني "زيف" يستطيع التعامل مع الأسماء رقمياً لمعرفة البيانات الإحصائية للمواطنين والمواطنات، ويحدد معدلات البطالة، ويُوجِدُ حلولاً للمشكلات الاجتماعية.

ثم عادت "لاقِيس" لإكمال ما لديها من تعديلات:

- أما التعديل الأخير، فلا يتعلق بأيِّ من مواد الدستور، وإنما باقتراح تشكيل لجنة منبثقة من مجلس الكلاب الضالة بوصفة أعلى سلطة تشريعية في البلاد، ويتم عرض هذه اللجنة على البرلمان لإقرارها، وستكون بمسمى "اللجنة التأسيسية الدستورية المنتخبة".
- لإعادة كتابة الدستور؟

قالتْ:

- نعم، مستقبلاً، عند الحاجة.

حين التفتُّ رأيتُ الدكتور "أسموديوس" منتشياً، يبدو أن الأمر كما وصفته لي "نكران" قبل انضمامنا إلى "برلمان حانة بارافيليا" هذا الذي يعيد كتابة الدستور. و"أسموديوس" اليوم لم يحضر بكامل ملابسه الرسمية التي ظهر بها على قناة "قيم بيلونا" ليلة البارحة ليحصد إعجاباً جماهيرياً بإطلالته على قناة تلفزيونية فقط، بل ليجني منصباً دستورياً تنبثق شرعيته مباشرة من أعلى سلطة تشريعية في البلاد؛ مجلس الكلاب الضالة.

لم يتحدث الدكتور "عاثر" طيلة سرد عضوة برلمان أهريمان "لاقِيس" المواد الدستورية الموضوعة على المذبح، لكنه، وربما من قبيل الرغبة في المشاركة وإثبات الحضور لا أكثر، أو من باب استعراض ما لديه من خلفية دستورية تاريخية أمام برلمان السكارى هذا، قال:

- إنَّ تبني هذه التغييرات يعطي مؤشراً على التحولات السريعة التي تمر بها جمهوريتنا في سبيل الاستجابة للضغوط الدولية، واستجابة للمطالبات الشعبية في تحديث بنية النظام التي يشكّل الدستور حجر الأساس فيها، وهي إلى ذلك حركة تشبه ما تقوم به غالبية الدول من حولنا في سبيل حوكمة أنظمتها وتطويرها.

قاطعتُه بعد أن استفزتني مفردة الحوكمة هذه، كما أنني أردتُ أن تكون مداخلتي هذه مَعْبَراً مناسباً للاستئذان والهروب من هذه المجزرة الدستورية:

- الحوكمة هي بداية جعل كل شيء بلا معنى، ونزع تفرد المواطن والمواطنة من أجل دمجهم في المجموع. لم يعد الأمر يتعلق بأن تكون مميزاً، ولا أن تكون مُختلفاً. أنتَ خارج سياق السلطة وخارج اهتماماتها. مجرد عامل يجيد فعل شيء محدود لمُنْتَجٍ نهائي لا يدري ما هو. مواطن تم تسطيحه منذُ الولادة، ثم تم تدجينه في دور اللقطاء الوطنية حتى صار في مرحلة الشباب لتتلقفه جامعة "بعلزبول قريباً" فتزيد من تعميق شعوره بالاضمحلال. ثمَّ إنني سمعتُ عن بعض مشاريع الدكتور "عاثر" التي

يزمع القيام بها في الجامعة، وحين استمعتُ إليه اليوم عرفتُ أن جمهوريتنا ستبقى رهينة حزب شبُهات الحاكم، وسيبقى برلمانها رهين سيطرة ذات الحزب، مدعوماً من أعضاء حزب ساقطات بلا حدود وحزب قبح اليميني المتطرف. ثم ها نحن الآن نريد أن تمتد يد الدولة، ورئيسها الأبدي والتاريخي كما تقول "نكران"، إلى ما بعد المرحلة الجامعية، وصلت الحوكمة إلى البرلمان وكافة مؤسسات الدولة، بدأ الأمر بجعل الضريبة أمراً غير مفهوم، يرى الشعب ما يتم أخذه من جيبه ولكنه لا يرى كيف يتم صرفه، ولا يقرر حتى طريقه صرف الدولة لماله الخاص. ولن ينتهي الأمر بجعل المواطنين والمواطنات ليسوا أكثر من أرقام إحصائية مجردة في برنامج "زيف" الوطني، بل سيتعداه إلى كل ما يهم المواطنين ومعيشتهم. كل هذا جعلني أطمئن إلى مستقبل "جمهورية أَهْرِيمان"، وزادت طمأنينتي حين شاهدتُ دستورنا تُعاد صياغة قوانينه الأساسية ومواده المحصّنة على طاولة بحانة بارافيليا.

نهضتُ، ونهضتْ "نُكران" لنهوضي. كان الدكتور "أسموديوس" ينظر نحوي فاغراً فاه، بينما تشاغل الدكتور "عاثر" في مسح نظارته، وكانتْ "لاقِيس" واجمة، أما السيد "حلزون" فكان ينظر إليَّ مبتسماً، إذ من الواضح، بالنظر، إلى مداخلاته، وبالنظر قبل ذلك إلى اسمه، أنه سينتهي من فهم كل ما قلتُه، أخيراً، بعد أسبوع أو أسبوعين من الآن.

***

[8]

حين خرجتُ من حانة بارافيليا برفقة "نكران" شعرتُ بأن الهواء البارد هو كل ما كان ينقصني، كنا نمشي بلا هدى، لم أعد من ذات الطريق الذي جئتُ منه، أردتُ الوصول إلى منزلي من أقصر الطرق للاطمئنان على "حسناء":

- سأعود إلى البيت، لأطمئن على "حسناء"، أنا قلقٌ بشأنها.
- سأذهبُ معك.

لم أعلّق، ورحتُ، متأبطاً ذراع "نُكران"، أسيرُ ببطء باتجاه منزلي. أشعلتُ سيجارة ورحتُ أفكرُ في المستقبل، فقط في المستقبل بدون أي أحداث أو حتى بلا تصوراتٍ مسبقة.

المستقبلُ الذي كنتُ أشاهده كثيراً في أحلامي في هيئة كرة زجاجية أرجوانية متوسطة الحجم، يتغير لونها كلما تدحرجتْ من اللون الأرجواني إلى اللون الأحمر والعكس، شاهدتُها مرّةً، وكنتُ حينها طفلاً في السادسة من عمري، تهوي إلى قعر جُرفٍ سحيق، فتظهر "حسناء" فجأة في الحلم حاملةً سلّةً من البيض وتتقدم نحو الجُرف، تجذبني من يدي بعيداً عنه، ثم تضع السلة بجواري بعد أن تحملني وتُجلسني على صخرة مرتفعة. تهبطُ ببطء نحو حافة الهاوية، ثم يتدلى نصفُ جسدها الأعلى إلى الجُرف فتتدلى ضفائرها، ما تلبث أن تسحب ضفائرها وكأنها تشدّ حبلاً، حين أرى الكرة

الزجاجية تلمع في طرف إحدى ضفائرها أنطلق نحوها مسرعاً، لكنني لا أتوقف، أنزلق نحو الهاوية، أراني أنظر إلى وجهها وهي تصرخ على طرف الجرف بينما أنا أهوي وظهري نحو الأرض، تمتد ضفيرتها الأخرى لتلتقطني. أتشبثُ بها، وحين أصل إليها تحتضنني وهي تبكي ثم تبعدني عنها وتصفعني. أعود واجماً معها إلى حيث سلة البيض، حين نصل إلى الصخرة تكون السلة قد اختفتْ، فتترك "حسناء" يدي، وتجلس مكان السلة وهي لا تزال تبكي. أتساءل لماذا تبكي؟ ثم أتسلّق الصخرة بصعوبة وأجلس بجوارها، ثم أبكي.

...

حين حاذينا المتحف الوطني، ضغطتْ "نُكران" على يدي، وقالت:

- متحف حزب شبهات الوطني والتاريخي.
- والأبدي.

وضحكنا. ثم قلتُ:

- من يسمعكِ في حوارات حانة بارافيليا يعتقد أنكِ لستِ سكرتير حزب "شبهات" الحاكم.
- أريد أن أشكّل معارضة للحزب من الداخل.

انتظرتْ أن أعلق، لكنني اكتفيتُ بالنظر إلى سيجارتي وتأملها وهي تشتعل ببطء، ثم ألقيتها على الرصيف ودهستها، فقالتْ "نُكران":

- وربما أستقيل من "شبهات" وأشكّل حزباً مستقلاً كصديقتنا السيدة "جَلَبة".
- ستحتاجين إلى "لطيم".
- ما أكثرهم. كنا قبل قليل ننظر إلى الدكتور "عاثر" وهو يجلس بمواجهة "لاقِيس"، حين تقفز على منصب رئيس البرلمان سيكون الدكتور "عاثر" هو لطيمها.
- و"حلزون"؟
- أعرف أنك تفهم في سلوك الأشخاص. "حلزون" بلا مكاسب سياسية، مجرد نكرة. حزبنا الوطني الحاكم يغذي قاعدته بأمثال "حلزون" في كل عام. لا بد من إيجاد البُله من أمثاله لشغل مقاعد البرلمان مستقبلاً. خذها قاعدة، إذ ربما يصل حزبك إلى الحكم بعد ثلاثة آلاف عام: يعرف البُله بعضهم بعضًا، لهذا ينجذبون إلى بعضهم ككرات المغناطيس، وبسرعة فائقة يحتلون المناصب ويستأثرون بالسلطة.

قلتُ، قبل أن أتورط في محاضرة جديدة، تكفيني محاضرة هلوسات والضريبة:

- وماذا ستسمين حزبك؟
- حزب المغفلين المحافظ.
- لماذا اخترتْ شريحة المغفلين تحديداً؟

- لأنهم الشريحة الأوسع في بلادنا. هم الذين يقوم على أيديهم اقتصاد الوطن، فهم الذين يعملون في مزارع الصراصير، وحقول استنبات القمل، ومناجم استخراج العثّة، ومصانع السموم الطبية، وغيرها من قطاعات الأعمال. إنها الشريحة التي يقوم على أكتافها اقتصاد الوطن، وهم غالبية شعبنا، ولكنهم لا يجدون حزباً لتمثيلهم والدفاع عن مصالحهم.
- أها، أعجبتني الفكرة. حين تؤسسين حزبك سأفعل كما فعل صديقنا "لطيم"، وأنضم إليك.

سكتتْ، ثم قالتْ بعد تفكير لم يطل:

- لا، لا. أنتَ اليوم، بعد ما قلتَه أمس، بلا مستقبل سياسي. يكفي أن تنجو من فعلتك المشينة التي اقترفتها، يا عدو الأقليات، يا معارض دستور "لاقِيس" الجديد.
- دستور "أهريمان".
- بل دستور "لاقِيس" ... "قريباً".

وضحكنا مجدداً. كنا قد وصلنا إلى زاوية المتحف الوطني، كانتْ لوحة فنية ضخمة تصور مؤسس جمهوريتنا "أهريمان" تعتلي بوابة المتحف مرتدياً بذلته الرسمية الشهيرة، بلون بني باهت، لون الموت والقذارة والقطران، نظرتْ إليها "نُكران"، وقالتْ:

- ما أكثر شيء يعجبك في رسم وجه "أهريمان"؟
- أنفه المتآكل بسبب الجدري.

رفعتْ رأسها قليلاً، ثم قالتْ:

- تعجبني عيناه.
- معك حق، هذا الحَول يضفي عليها هيبة وحِدّة.

لم تعلق، واستمرينا في المشي، حين قررنا أن نقطع الطريق باتجاه الرصيف الآخر تشبّثت "نُكران" بذراعي. فخطر لي أن أسألها سؤالاً لم يسبق لي أن فكرتُ أن أسألها إياه من قبل طيلة سنوات معرفتي بها، وهي التي سكنتْ معي في منزلي لثلاث سنوات تقريباً:

- ما كان اسمك الوطني في دار اللقطاء.

سكتتْ، لم تجب، واستمرينا في قطع الطريق العريضة، حين وصلنا إلى الرصيف الآخر انعطفنا يسارا، واستمرينا في المشي ببطء:

- شرموطة 313

كنتُ أظن أنها لم تسمع سؤالي، أو أنها سمعتْه ولكنها تجاهلته.

- وأنتَ؟

لم يفاجئني سؤالها، فقد كان متوقعاً. يسهل توقع أسئلة الكشف كما كنتُ أسميها، كم عمرك؟ وأنت؟ أين تعمل؟ وأنت؟ هل سبق لك السفر خارج الجمهورية؟ يجيبك من تسأله، ثم يُلحقها بالسؤال المتوقع: وأنت؟ هذا ما يجعلني أكره سؤال أي شخص، لأن الأسئلة والإجابات تصبحُ مملةً مع مرور الوقت:

- لقيط 1924
- لماذا؟
- ماذا تعنين؟
- لماذا رقمك الوطني مكون من أربعة أرقام؟

فهمتُ حينها ما تعنيه، فقلتُ:

- حين يكون هناك من سبقك في ذات الدار بنفس نهاية الرقم الوطني يضيفون رقماً رابعاً للتفريق بينك وبينه. أليس مميزاً بأربعة أرقام؟
- لا، ليس فيه أي شيء مميز.

علّقتْ نكران، ولزمتُ الصمتْ. لكنها بعد بضع خطوات قالتْ:

- أتعلم أن السيدة "لاقِيس" كانتْ معلمتي في دار اللقطاء الوطنية السادسة والأربعين؟
- لا، لأول مرة أعلم أنها كانتْ معلّمة. كنتُ أراها مع والدتي في أروقة صحيفة "أكاذيب" لا أكثر.

- لا، لا. كانت قبلها معلّمة في دار اللقطاء الوطنية السادسة والأربعين. وكانتْ جادة طيلة الوقتْ، وتتحرش بطلاب الصف الثاني عشر باستمرار.

وها قد أصبحتْ عضواً في برلمان "أهريمان"، وستقفز هي وأخوها إلى رئاسة البرلمان في وقتٍ وجيز. وربما أصبح السيد "حلزون" نجم تجارة الاحتيال نائباً لرئيس البرلمان الوطني، عندها سيكون بحق "برلمان لاقِيس تماماً".

- وأي المواد كانتْ تعلمكم؟

قالتْ "نكران" بعد صمتٍ وجيزٍ بدا أنها تريد من خلاله استعادة ماضٍ سحيق:

- كانتْ أستاذة المواد الإباحية وفنون الدعارة.

عادتْ إلى تذكر التفاصيل أكثر، ثم قالتْ:

- في الصف العاشر درّستنا مادة "غرس أساسيات القبح الفني في نفوس الناشئة"، كما درّستنا مادة "أدوات الفوضى الموسيقية". أما في الصف الحادي عشر فقد كانتْ معلمتنا في ثلاث مواد: "أركان التحرش"، و"كيف تمارس الاغتصاب"، و"السرقة المهنية".
- لم تكن معلمتك في الصف الثاني عشر؟

- على العكس، أصبحت معلمة التطبيقات لكل المواد، تعلم أن كل مادة نظرية لها جانب تطبيقي، وكانتْ السيدة "لاقِيس" في سنتنا الأخيرة في دار اللقطاء شبه مقيمة في مختبرات الدار، درَّسَتْنا تطبيقات مادة المثلية، وتطبيقات مادة السرقة، وكذلك مواد الفساد والتطبيقات الربوية، وحتى مواد غسيل الأموال والاحتيال والرشوة قامتْ بتدريس الجوانب التطبيقية منها.
- أُف، كانتْ بحراً في العلوم.
- نعم. رغم أنها لم تحصل على تعليم نظامي بعد تخرجها من دار اللقطاء الوطنية، إلا أنها كانتْ طموحة، واصلت التعلم الذاتي ولاسيما في القيم الأخلاقية العليا للجمهورية. كانتْ تقضي جُلّ وقتها في مكتبة "السخافة الوطنية".

بدا لي أنها استطاعتْ شق طريقها بقوة، وأنها تستحق ما وصلتْ إليه الآن:

- واستمرتْ معلمة في الدار بعد خروجك منها؟
- لا، لا. عامٌ واحد فقط، ولم تكن فيه معلّمة بل نائبة مدير الدار السيد "زوابع".

يبدو لي اسم السيد "زوابع" مألوفاً، لكنني لم أسألها عنه. واستمرينا في المشي ببطء وتأمل واجهات المحلات الربوية، العادة التي كنا نمارسها معاً أيام الإجازات وفي الأعياد الوطنية.

توقفتْ "نكران" أمام فتى، يبدو أنه غادر دار اللقطاء الوطنية لتوّه، كان يقفُ أمام حانوت مؤقت مصنوع من الصفيح في منطقة تشبه مدخلاً جانبياً لمجموعة بنايات يتفرع من الشارع الرئيسي، وقد كُتب على لافتةً مثبتة جانب حانوت الصفيح: حانوت العظام المسحوقة، كان يبيع الهيروين والكوكائين والمخدرات الأخرى، سمعتها تفاوضه على عشرة جرامات من الكوكائين. تركتها تبتاع ما تحتاجه وأشعلتُ سيجارة رحتُ أدخنها وأنفثها في الهواء. عندما رأيتُها تدس المظاريف الحمراء الصغيرة في حقيبة يدها قبل أن تقبل نحوي، رميتُ بعقب سيجارتي، ومددتُ لها يدي فعادت للتعلق بذراعي وعدنا للسير باتجاه منزلي.

لم نقطع إلا خطواتٍ قليلة حتى ظهرتْ أمامنا فجأة الراقصة "فضائل"، ظهرتْ في الاتجاه المعاكس لنا على الرصيف الذي كنا نمشيه. احتضنتْ "نكران" وقبّلتها حتى قبل أن نستوعب كيف وُجِدتْ بهذه الطريقة العجيبة، كأنها نبتتْ من الأرض. ثم صافحتني بسرعة خاطفة، لتتحول بكامل جسدها إلى "نكران" التي بدا أنها متفاجئة لهذا الوجود الطارئ:

- أبحث عن "جحود"، هل رأيتِها؟ هل كانتْ معكم في الحانة؟
- نعم، لكنها غادرتْ منذ ساعة أو أكثر.

سمعتْ إجابة "نكران"، ابتسمتْ فحسب، ثم أكملتْ طريقها.

نظرتُ إلى "نكران" التي كانت تنظرُ إليَّ بدورها، ثم انفجرنا ضاحكين:

- ما اسمها الحقيقي؟
- "جُرذة" ربما، أو "جرذان"، لا أذكر. كانتْ معي في دار اللقطاء وكانت تحمل اسماً وطنياً حينها، ولم أرها بعد ذلك إلا مرة واحدة قبل سنواتٍ مضتْ، وكان لقاءً مطولاً كهذا وعلى الرصيف أيضاً.

ثم أضافت:

- تعمل راقصة تعري في ملهى "جرداء" واسمها الفني "فضائل".
- لم يسبق أن رأيتُها في أي ملهى، ولم أكن أعلم أنها راقصة. ستكون كارثة إن كانتْ تصعد إلى المسرح بهذا الشكل وتغادر بهذه السرعة.

أشرتُ إلى حانوت يبيع أجهزة الاتصال الحديثة:

- ربما أقتني جهاز اتصال حديث، حتى أطمئن على "حسناء" إن انشغلتُ خارج المنزل.
- كان لديَّ، بقي معي فترة وجيزةٌ وتخلصتُ منه. شعرتُ بالغيظ مرة حين حمّلتُ أحد تطبيقاته، أظن أن اسمه "مراوغة"، تطبيق يعرض في عشر ثواني لا أكثر موضوعًا ما.

انتظرتُ أن تكمل، لكنها لا زالتْ تمارس استراتيجيتها القديمة، حين تبتر الحكاية خصوصاً إن كانتْ تظنها مشوّقة، أو اعتقدت أنني مهتم بمعرفة نهايتها:

- وما الذي أغاظك فيه؟

- يعرض قصصاً ليستْ مهمة، ويدعو إلى قيم العفة والشرف وغيرها مما قد يشكل تهديداً لقيم النشء من أبناء الجمهورية.
- قد لا أحتاجه، سأرى.

كنّا قد بلغنا الزاوية التي سننعطف منها يساراً إلى الشارع الذي فيه منزلي:

- أين ذهبَ حانوت الأدوات السادية؟
- أغلق منذ شهرين تقريباً، سمعتُهم يتهامسون في الحيّ أنه انتقل إلى شارع مرشد الجمهورية "ساطان" الشارع التاسع والعشرين سابقاً. قيل إنه فاز بمناقصة حكومية لتوريد أدوات التعذيب إلى دور اللقطاء وأقسام الشرطة وكذلك السجون، فرغب في الانتقال إلى مقر أوسع، لكنني لستُ متأكداً.
- وما النشاط الذي يبدو أنه سيحل محله؟
- لم أتبين ذلك بعد، مجرد نميمة في الحي، يقولون بأنه سيكون محل لبيع الأغذية الحرام، ربما كان يتبع جمعية أنصار الزواج.
- نعم، ستنتشر مثل هذه الحوانيت، وستكون تجارةً رابحة بعد إقرار "دستور لاقِيس قريباً".

***

[9]

لم أكن وحدي، كنتُ أسيرُ في غابة ذاتِ أشجار طويلة ومتشابكة، كنتُ ممسكاً بإصبع رجل لا أرى ملامحه، كان جسده يمتد في الفضاء إلى ما لا نهاية، كلما رفعتُ رأسي لأتبين ملامحه كنتُ اصطدم بغصون الأشجار وأوراقها، تسقطُ ورقةٌ صفراء كلما حاولتُ تبيُّن وجه ذي الإصبع الذي يقودني من خلال الغابة، في كلّ مرة تسقطُ ورقةٌ صفراء جافة تماماً رغم أننا كنّا في فصل الربيع. أمشي على أمل أن تنتهي الغابة، وحين تنتهي لا يظهر رأس الرجل الذي تغطيه السحبُ، كدّتُ أبكي، لكنني عدتُ ببصري لأتبين الطريق، كانتْ مفازة ممتدة، يمشي الرجل وأنا متشبّثٌ بإصبعه الصغيرة وأسير بجانبه، أشعر بحرارة الشمس التي لا أراها حين أرفع رأسي فلا أعود للنظر إلى الأمام إلا بعد أن تسقط حبةُ مطر وحيدة فترتطم بوجهي وتُحدثُ دوياً مهولاً. يظهر لي من بعيد سور من الحجارة الضخمة يسدّ الأفق، يمتدُّ السور إلى السماء، وتتوسطه بوابةٌ من جماجم بشرية تنزُّ دماً وهي تبتسم. حين بلغناها انفتحتْ، لا شيء بعدها سوى مباني مهجورة وأزقة مرصوفة بحجارة ملساء لم أر مثلها في حياتي، كنّا نتجول بهدوء، التفتُّ إلى اليسار حين بلغنا باحةً واسعة، كأنها مركز المدينة المهجورة، لأتبيّن مصدر الصوت الذي يشبه المواء، وحين عدتُ أنظر إلى الأمام شعرتُ أن الإصبع التي كنتُ أمسك بها قد انسحبتْ. كانتْ يدي معلقةٌ في الهواء ممسكةً باللاشيء. صار صوتُ المواء يرتفعُ شيئاً فشيئاً

حتى باتَ ضجيجاً يصم الآذان، وضعتُ يديَّ على أذنيَّ وانحنيتُ، حين رفعتُ رأسي رأيتُ قطاً أسود يجلس أمامي على كرسي ذهبي، قال لي بصوت حاد ومحايد: مرحباً بك في مدينة القطط. حين استيقظتُ كان الهواء من حولي أصفر رخواً يشبه الجدري، ورأيتُ باب غرفتي ينزّ دماً، وصوتٌ يشبه المواء يصلني من مكانٍ ما خلف الباب.

...

حين وصلنا كانتْ "حسناء" على حالها كما تركتُها قبيل منتصف النهار، لكن يبدو أنها تناولت فطورها بعد خروجي، طبقٌ فارغٌ على الطاولة التي أمامها، وكأسٌ شربتْ نصفه فقط، وبقي في قعره أوراقٌ سوداء يغطيها مشروبٌ أحمر يميلُ إلى السواد.

حيّتها "نكران"، لكنها لم تُجب، فانحنيتُ ووضعتُ يدي على كتفها فتململتْ قليلاً، لكنها بقيتْ على حالها:

- ربما كانتْ نائمة.

قالتْ "نكران"، فأجبتُها:

- ربما.

لم أكن مطمئناً لأنني أعلم يقيناً أنها لا تنام في مثل هذه الساعة من النهار، كما أن إيقاظها ليس بالعملية الصعبة.

عدتُ لهز كتفها بقوة لكنها لم تستجب هذه المرَّة، فجثوتُ على ركبتيَّ وأخذتُ أهزّها بقوة وأحاول رفع رأسها، كانت تتنفسُ بصعوبة لكنها لم تستجب مطلقاً:

- إنها غائبةٌ عن الوعي.
- المسكينة.

ذهبتْ "نكران" إلى المطبخ، ثم عادتْ وليس معها شيء، وأخذتْ تدور في الصالة حول الأريكة التي كانت "حسناء" ممددةٌ عليها، كان من الواضح أنها لا تدري ما الذي يجبُ عمله. كنتُ أنظر إلى "حسناء" على أمل أن يحدث شيء، أن تستيقظ مثلاً، أو أن تنقلب على أحد جانبيها لأشعر أنها نائمة فحسب. لم يحدث شيء، فرفعتُ رأسي إلى "نكران" وقلتُ:

- يجب أن نتصلَ بفرقة الإنقاذ الوطنية.
- أصبح لديك هاتف؟
- لا، لكن سأذهب لمركز اتصال الحي.
- سأذهب أنا..

خرجتْ مسرعةً، وبقيتُ مع "حسناء" أتأملها. ما هي إلا دقائق حتى عادتْ "نكران":

- سيصلون حالاً.

بدا أنها قالتْ عبارتها وهي تبحثُ عن شيء ما، ثم ذهبتْ إلى المطبخ من جديد لتعود حاملةً حقيبة يدها، كانتْ تحملها بيد وتبحث باليد الأخرى عن شيء ما بداخلها، أخرجتْ ظرفاً أحمر صغير الحجم، ثم أقعَتْ على الأرض بجوار طاولة صالة الجلوس وأفرغتْ ما فيه من مخدر وراحت تشمه ببطء على غير عادتها. حين انتهتْ منه رفعتْ رأسها، ونظرتْ إلى جسد "حسناء" الممدد على الأريكة أمامها، ثم قالتْ بعد صمتٍ وهي تفركُ أنفها:

- المسكينة.

وجدتني أردد معها:

- المسكينة.

ما هي إلا دقائق حتى رأيتُ شاباً وشابة يقفان على باب منزلي الذي تركتهُ "نكران" حين عادتْ مشرعاً، قال الشابُّ:

- منزل السيدة "نكران"؟

قلتُ:

- نعم، تفضلا.

قالتْ الشابة:

- نحن من خدمة الإنقاذ الوطنية، الفرع التاسع، نتبعُ وزارة أسقام الصحة، سيتوجبُ عليك استلامُ إيصال الخدمة، ودفع الرشوة المقررة لأعضاء الفريق. هل تفهم ذلك؟

لا أدري لماذا يجب قول هذه العبارة الطويلة جداً في حالاتٍ حرجة كهذه. الجميع يفعلُ ذلك، حتى ولو كانوا يباشرون حادثة دهسٍ والمصاب يُحتضر، لا بد من هذه العبارة التي تصدر من الجميع بذات الحياد، وبذاتِ النبرة، وكأنك تستمع إلى صوت جهاز الرد الآلي.

قلتُ:

- نعم، أفهم ذلك.

ومددتُ يدي لاستلام الإيصال، ثم وضعتُه على الطاولة. تقدّم الشاب، وقال:

- أين هي المصابة؟

كانتْ أمامه مباشرةً، لكن يجب التحقق كما تقتضي المهنيّة التي يُدَّرَبُ عليها جميع الأعضاء في فرق وزارة أسقام الصحة.

قلتُ، وأنا أشيرُ إلى الجسد المسجى:

- هي ذي.

نظر الشابُ إلى جسد "حسناء" لبرهة، ثم رفع رأسه لينظر إلى رفيقته في الفريق التي كانتْ تنظر بدهشة إلى "حسناء"، ثم عاد ببصره إليَّ وقال:

- ولكن ..

ثم سكتْ.

قلتُ:

- ولكن ماذا؟

قالتْ الشابة:

- سيدي، إنها شاذة.

شعرتُ بالغضب، وقبل أن أنطق، كانتْ "نكران" قد انفجرتْ:

- إنها مواطنة، وهي بحاجة إلى رعاية. كيف تجرأتِ؟ من أنتِ حتى تصفينها بالشاذة؟
- أعتذر منك يا سيدتي، لكن التعليمات تقضي بعدم نقل أي مواطن أو مواطنة لا يحمل اسماً ورقماً وطنياً. لا يقبل النظام الإلكتروني الوطني "زيف" بإدراجها ضمن المستفيدين من خدمة وزارة أسقام.

ردّتِ الشابُة. فصرختُ، وقد استبدّ بي الغضبُ:

- أي نظام هذا الذي تتحدثَانِ عنه. لم يسبق لي أن سمعتُ به، هل هناك نظام يحرم مواطن من الخدمات العامة لأنه فقط لا يحمل اسماً ورقماً وطنياً؟
- نعم يا سيدي.

كان الشابُ والشابة يتناوبان الإجابة بذات النبرة الآلية، وكأنهما قد تعودا المرور بمواقف كثيرة كهذه.

قلتُ:

- لتسجلاها في نظام زيف باسم: شرموطة 313 إذن.

نظرتُ باتجاه "نكران"، التي عقّبتْ على عبارتي الأخيرة حتى لا تكون مبهمةً للفريق:

- ها قد حصلتُما على اسم ورقمٍ وطني، شرموطة 313، هذا اسمي ورقمي الوطني، استخدماه إن كانتْ المشكلة مشكلة النظام الإلكتروني ليس إلا.
- لا نستطيع، يمكنكِ النزول إلى رئيس الفريق، إنه الوحيد الذي لديه الصلاحية ليحدد إمكانية فعلُ ذلك أم لا.

انطلقتْ "نكران" وانطلقتُ في أثرها. حين وصلنا إلى حيث تقف سيارة الإنقاذ العاجل ذات الخطوط الثلاثة الرمادي والأصفر والبني، شاهدنا

رجلاً يلبس اللون الأسود المميز للعاملين في وزارة أسقام الصحة، كان يقف بجوار السيارة، وكانتْ هيئته تبعثٌ على الاطمئنان:

- كيف يجرؤ فريقك على نعتْ مواطنة بحاجة إلى الرعاية بالشاذة؟، ألا تعلمون بأن لها حقوقاً؟

كانتْ "نكران" تتحدثُ وهي تلوّح بيديها في الهواء، لم أرها من قبل في مثل هذه الحالة، بدتْ ساخطة تماماً، ومصدومة. جذبتُها للخلف قليلاً، ثم تقدمتُ نحو الرجل الذي كان يبتسمُ وكأن الأمر لا يستحق كل هذا السخط.

قلتُ:

- فريق الإنقاذ الذي جاء إلى منزلي بعد أن تقدمتُ ببلاغ، يرفضُ حمل السيدة المصابة.
- ما اسمها؟ قال.

قلتُ:

- سافو.
- أنتَ تعلمُ أننا لا نتعامل بالأسماء الخاصة، أريدُ اسمها الوطني وآخر ثلاثة أرقام من سجلها.
- شرموطة 313

هكذا عادتْ "نكران" لتصرخ، لكنني دفعتُها بعيداً مرّة أخرى، وحاولتُ شرح الموضوع لرئيس فريق الإنقاذ بشكل مبسّط:

- هذا الاسم الوطني لهذه السيدة التي تقف معنا الآن، المريضة ليس لها اسمٌ وطني معروف، على الأقل نحن لا نعلمه.
- لماذا؟
- لأنها عضو في جمعية أنصار الزواج.
- أها، تريدُ منّا نقل سيدة شريفة من منزلك.
- نعم، هي كذلك. لا يهم بأي نعتٍ مهين تصفها، المهم أن يتم نقلها.
- وما علاقتُك بها.
- مربيتي.

كأن إجابتي أدهشته، وأخذ يقلّبُ نظره بيني وبين "نكران"، كيف تعهدُ أمٌّ بطفلها إلى سيدة شريفة لتربيته، ألا تخاف من أن تتسرب إليه قيمها غير المقبولة، أو أن ينضم إلى جماعتها الشاذة، هكذا كنتُ أستنتج ما قد يكون سبباً في صمتِه الذي لم يكن لينتهي لولا أنني قلتُ له:

- ما رأيك فيما نحن فيه؟

نظر إليّ مجدداً، ثم عاد ينظر إلى "نكران" ثم قال:

- هل تسلّمتَ إيصال الرشوة الوطنية.
- نعم.

عاد لصمته، ثم قال:

- لا بأس. عليك أن تحصل على رقم هاتفِ جمعية أنصار الزواج للاتصال بهم في المرة المقبلة. هم المخولون بنقل أعضاء جماعتهم وعلاجهم.
- ألن يتم علاجها في مستنقعات وزارة أسقام الصحة.
- لا، لا. سننقلها لك، فقط هذه المرة لقاء رشوة إضافية، إلى مستنقع جمعية أنصار الزواج.

دارتْ "نكران" حول الرجلِ ثم قالت:

- ألا تعلم أن الوضع قد تغيّر؟ وأن أي مواطن بغض النظر عن معتقداته يحق له الحصول على الخدمات الوطنية دون تمييز؟

قال الرجل بذات الحياد الذي لم يتغير:

- سيدتي، أنا عضو في حزب "قبح" اليميني. وأعلمُ ما تتحدثين عنه، لكن ما يتحدث عنه البرلمانيون والساسة يحدث عكسه على أرض الواقع. لا بد أنكِ على علمٌ بذلك.

نعم، كان على حقٍ تماماً. ما يقوله الساسة، وما يعد به البرلمانيون، وما يبشرُ به الإعلام الوطني ليس أكثر من وعود وأحاديث لا صلة لها بالواقع. حتى الإحصاءات الرسمية التي تجدها كل عام لتعدد المنجزات الوطنية،

ليستْ أكثر من خيال لا حقيقة له على أرض الواقع إلا كونه يخرج من "بيت الأشباح"، مقر رئيس وأعضاء الحكومة.

كان لا بُدَّ من شكر رئيس فريق الإنقاذ العاجل، عضو حزب قبح اليميني المتطرف. لا فائدة من إبداء الامتعاض لكونه يصرٌّ على رفض نقل "حسناء"، إلى مستنقع وطني لأسقام الصحة، يكفي أنه قبل بنقلها، رغم التعليمات التي يصعب عليه تجاوزها، ورغم عضويته في حزبٍ متطرف:

- معك حق يا سيدي، جميعنا يعلم ذلك. علينا أن نؤمن بشعارات الزيف الوطني، وأن نلتزم بما ورد في الدستور.

كان لا يزالُ ينظرُ إليَّ بذاتْ الحياد الذي كان ينظر به إلينا، أنا و"نكران"، حتى في لحظات غضبها المستعر. فقلتُ مستكملاً خطاب العرفان الذي بدأتُه توّاً:

- مع بالغ شكري لما تقومون به من جهود.

ثم مددتُ له رشوة إضافية، ولكنها هذه المرة لن تصبَّ في خزينة الدولة لتُسهم في تحفيز الاقتصاد الوطني، بل ستصب مباشرة في جيب رئيس فريق الإنقاذ العاجل.

[10]

من النادرِ أن تغيب "حسناء" عن أحلامي، مرة كنتُ أجلس معها بجوار نهر، كانتْ تصيد الأسماك كعادتها، وكنتُ أحملُ سلّةً كبيرة الحجم بالنسبة إلى طفلٍ في السادسة. كراتٌ مطاطية تطفو على صفحة الماء الذي يتدفق ببطء، كل شيء بدأ يتغير بالتدريج. توقفتُ عن جمع السحالي ووضعها في السلّة، ثم هويتُ بيديَّ على الأرض، ركبة واحدة على الأرض أيضاً، وساقي الأخرى مشدودةٌ كوتر قوس. كعداء كنتُ أقعي منتظراً انطلاقة ما. كان الهواء أول شيء بدأ يتغير، أصبح بطعم الرصاص، ثم توقف النهر تماماً، قلتُ لنفسي: توقف الزمن.

كانتْ "حسناء" مستمرة في الصيد، أسمعها تترنم بأغنية حول الشغف، تحكي أغنيتُها قصةً عن راعٍ سجنه الحاكم، لم يكن يشكو من مرارة السجن، ولا يريد أن يخرج للمشاركة في زفاف أخته الصغيرة، ولا يتمنى لقاء حبيبته، فقط يعدُّ أسماء قطيعه اسماً اسماً. أغمضتُ عينيَّ ورحتُ أضيفُ لكل اسم لوناً، لا بد من فعل شيء بعد أن توقف الزمن. لا بد من فعل شيء قبل أن يتكور الزمن ليتحوّل إلى يوم الدينونة. أصبحتْ سنارة "حسناء" تصطاد جثامين صغيرة لأطفال بلون الأُرجوان، تجذبهم واحداً واحداً وتُسمِّي كل واحد منهم اسماً: متوسط أسود، صغير، كبير بلا أذنين، متوسط بطعم الخراب، صغيرٌ له لسانُ حرباء؛ وهكذا، ثم تقبّله وتضعه بجوارها. مرَّتْ عاصفةٌ غيّرتْ لون النهر من لون التراب إلى اللون

الأخضر، واختفتْ الكراتُ المطاطية، أصبح لون الهواء يميل إلى الحمرة. قالتْ "حسناء" كمن تحدثُ نفسها وهي تجمع أطفالها وتنهض: هذا كل شيء، لا بد أن نذهب.

...

نزل الشاب والشابة يحملان "حسناء" على نقالة المرضى المصنوعة من النايلون المزدوج ذات الأطراف الحديدية، كانت تتقدمهم "نكران" وهي تفرك أنفها بقوة. فتح رئيس الفريق باب عربة الإنقاذ الوطني العاجل، وساعدهما في رفع النقالة إلى داخل العربة، صعدتُ معها. وصعدتْ "نكران" لتجلس بجانبي، جلس الشابُ في الكرسي المقابل الذي يفصل بيننا وبينه سريرٌ ترقد عليه المريضة، ثم أغلق رئيس الفريق الباب، وجلس خلف المقود، وبجانبه الشابة، العضو الآخر في الفريق.

كانتْ تفوح رائحة مستحضر العفن الأسود الطبي من العربة:

- رائحة العفن الأسود.

قلتُ، فأجاب الشاب:

- نعم، يمزجونها بمواد أخرى حتى تعطي للعربة رائحةً زكية، ويستخدمونها كذلك في المستنقعات الوطنية لرعاية المرضى.

لم أعلّق على ما قاله، فصمتَ لدقيقةٍ، ثم أضاف:

- يجبُ أن تشعرا بالامتنان لرئيس الفريق الذي وافق على نقل هذه الشاذة بعربة الإنقاذ الوطني. كنتما ستضطران لمرافقتها في عربة الإنقاذ التابعة لجمعية الزواج، وكنتما ستضطران للتأقلم مع روائح المطهرات الطبية التي يمزجونها بروائح عطرية لا يمكن تحمُّلها.

عندما نطق مفردة "الشاذة" شعرتُ بأن "نكران" ستنفجر، فضغطتُ على يدها حتى لا تتكلم، لكنها سألتْه بعد أن فرغ من ملاحظته الهامة حول الامتنان:

- إلى أي حزبٍ تنتمي؟

نظر إليها الشاب، لم يتوقع مثل هذا السؤال في مثل هذا الموقف، لكنه أجاب على أيّة حال:

- حزب حشرات الغد الراديكالي.

هنا كنتُ أنا من فوجئ بإجابة الشاب، لم أتوقع أبداً أن ألتقي، على أرض الواقع، بأحدٍ ينتمي لذلك الحزب، حزب "جَلَبة" و"لطيم":

- ولماذا انتميتَ لذلك الحزب؟

سألتْ "نكران". نظر الشابُ إلى مؤخرة العربة، كأنه كان يبحث عن إجابة ملقاة على أحد أرصفة الشوارع التي كنّا نقطعها بسرعة، ثم أعاد بصره إليَّ، وليس إلى صاحبة السؤال، وقال:

- يمثل الحزب شريحة الشباب، ومن خلاله نعبِّر عن كل ما نرغب في تغييره مستقبلاً.

فقالتْ "نكران" بعبارة ساخرة، لكنها كانتْ حقيقية وموجعة:

- حزب للغد، وأنتَ شابٌ، هذا مفهوم. لكنه حزبٌ راديكالي، وأنتَ عنصري يليق به الانتماء لحزبٍ يميني متطرف.

أضافتْ، حتى قبل أن يظهر على الشاب أنه قد فهم مستهل عبارتها:

- على الأقل، قل: أنا أنتمي إلى حزب حشرات الغد، وهذا يكفي، ولا تذكر مفردة الراديكالي مطلقاً.

عندها بدا أن الشاب قد فهم ما تعنيه، فقال بهدوء:

- سيدتي، ما نؤمن به يختلف عن القوانين التي تُسَيُّرُ عملَنا. هناك فرق.

ثم ران الصمت.

...

حين توقفتْ العربة، ترجل رئيس فريق الإنقاذ الوطني لفتح الباب الخلفي، تبينتُ أننا كنا في إحدى الضواحي، بناءٌ مهلهلٌ بملاحق بُنيتْ فوقه بلا تناسق، مكتوبٌ على واجهته: "مستشفى جمعية أنصار الزواج. ولم يكن بقربه أي بناء آخر. تراجع رئيس فريق الإنقاذ ووقف جانباً، ويليه الشابة التي كانت تجلس في العربة بجواره، ثم قفز الشاب الذي كان يجلسُ

معنا وذهب للوقوف بجوار الشابة. بقيتُ أنا و"نكران" ننتظر ما سيحدث كخطوة تالية، مضتْ دقيقة قبل وصول سيدتين تدفعان سريراً بعجلات مهترئة، ثم تقدمتا من جسد "حسناء" وجذبتاه إليهما، حملتاه حتى استقر على السرير ثم دفعتاه باتجاه البناية المهترئة. ترجلتُ ثم أخذتُ بيد "نكران"، ورحنا نتبع السيدتين اللتين كانتا تتوقفان في كل مرّة وتحاولان تعديل إحدى العجلات التي تتوقف عن السير، ثم تواصلان دفع السرير. كنت أسمع من خلفنا صوت إغلاق باب عربة الإنقاذ الوطني، ثم زمجرتها وهي تنطلق بعيداً.

حين عبرنا بوابة البناية، استقبلتنا روائح مطهراتٍ نفّاذة ممزوجة بروائح عطرية كريهة أعادتني إلى أيام الطفولة، زرتُ هذا المكان في سن الثامنة أو التاسعة ربما، وكانتْ "حسناء" مريضة، جاءت بها أمي إلى هذا المستنقع الخاص، ربما كان البناء حينئذٍ أصغر حجماً. سألتُ أمي، يومها، عن ماهية هذه الروائح النفاذة الغريبة، فقالتْ لي: إنها رائحة الصندل. بقيتْ الرائحة عالقة في ذاكرتي. لكنني لم أزر هذا المكان مرّة أخرى سوى اليوم، ربما صارتْ "حسناء" تزوره وحدها بعد تلك المرة الوحيدة التي كانت برفقة والدتي في سنوات طفولتي الأولى.

جاء رجلٌ بهيئة غريبة، له شاربٌ يزيد من منظره القبيح، كان يرتدي بالطو بذات اللون الأبيض الكريه الذي رأيتُ السيدتين اللتين استقبلتانا

ترتديانه. كل شيء هنا أبيض يبعثُ على الكآبة. عندما فرغ الرجل من الكشف على "حسناء"، نظر نحوي، وكانتْ "نكران" بجانبي، وقال:

- ماتتْ.
- هكذا بلا مقدمات؟

قالتْ "نكران"، فأضفتُ:

- كانتْ تتنفسُ عندما حملناها في عربة الإنقاذ الوطني.
- لقد ماتت، لا شيء يمكننا فعله. ربما ماتتْ وهي في الطريق إلينا.

سكتَ، ثم انحنى على جسدها، وأخذ يتفحّصه من جديد، ثم رفع رأسه إلينا، وأكّد:

- ماتت، بلا أدنى شكّ.

ثم أشار لذات السيدتين اللتين أدخلتاها، وقال:

- إلى قسم التجهيز.

قلتُ للرجل الذي باتَ منظره كريهاً للغاية بعد كلمته الحاسمة تلك:

- سننتظر في الخارج.

...

جلستُ، وجلستْ "نكران" إلى جواري، على كرسيين كانا ضمن مجموعة كراسي حديدية موضوعة حذاء جدار المستنقع الخارجي، يسار بوابته التي كانتْ تستقبلُ مريضاً آخر، لكنه هذه المرة كان يسير على قدميه

بعد أن ترجل من عربة كتب عليها: جمعية أنصار الزواج، كانت بيضاء يتوسطها خطٌّ أحمر عريض.

- ماذا كان يقصد بقوله إلى قسم التجهيز؟

سألتْ "نكران"، فقلتُ لها:

- القسم الذي يغسلون فيه جثمان الميّت، ثم يلفونه في أقمشةٍ بيضاء، إنها طريقتُهم التي يجهزونه بها ليدفنوه في الأرض.
- أُف، ذات الألوان البيضاء القبيحة تصاحبه حتى بعد موته.

كانتْ الساعة قد أوشكتْ على بلوغ السادسة مساءً، كنتُ أدخن سيجارتي وأشاهد منظر الشمس تتجه نحو الأفق. استمر الصمتُ لأكثر من عشر دقائق، حتى قطعتْه "نُكران" بسؤال جديد، يبدو أنه حول ما كان يشغل تفكيرها خلال صمتنا:

- ألا يحرقون جثثَ موتاهم؟

قلتُ، وقد راعني جهل "نكران" بطقوس المتزوجين والمتزوجات وجمعيتهم:

- لا، يدفنونهم في الأرض.

عادتْ لتلوذ بالصمتْ. توقعتُ أن تسأل: ولماذا يدفنونهم؟ فرحتُ أفكر في إجابة مسبقةٍ، لكنني لم أجد تفسيراً منطقياً لذلك الفعل. بقيتُ متوجساً، يمكن أن تنفجر "لماذا؟" في أي لحظةٍ من فم "نكران"، لكن هذا

لم يحدث. بقينا لنصف ساعة على هذه الحال، حتى رأيتُ رجلاً يخرج من البوابة ويتجه نحونا، إنه ذات الرجل الذي كان يتحدث عنّي صباح اليوم على الصفحة الأخيرة من جريدة التابلويد "قذارات"، لم أكن التقيتُه من قبل، ولا أتذكر حتى اسمه، لكن صورتَه بقيتْ في ذاكرتي. سرني أنه كان قد ذكر "حسناء" في اللقاء الصحفي، ما يعني أنه يعرفها:

- دكتور "إسِاج"؟
- نعم، وهذه "نُكران".
- أهلاً وسهلا بك. أنا "مجيد"، رئيس جمعية أنصار الزواج.
- نعم، نعم. أعرفك.

"مجيد"، نعم، هذا هو اسمه. قال مجدداً:

- خلال أقل من ساعة سنحمل "حسناء" إلى المقبرة، هل ترغبان المشاركة في جنازتها.

نظرتُ إلى "نُكران"، التي هزّتْ رأسها دلالة الموافقة، فقلتُ:

- نعم، بالطبع.

انصرف، وبعد أقل من ساعة خرج جَمعٌ غفير من البوابة حاملاً جثمان "حسناء"، عرفتُ أنه جسدها بالنظر إلى طوله، هذا الجسد الطويلُ الذي اعتزل مدينة "بيلونا" وساكنيها لعقود من الزمن ليتولى تربيتي. وقفتُ أنا و"نكران" حتى تجاوزَنا الحشدُ، كان يتقدمهم "مجيد" وبجانبه الرجل

الذي أجرى الكشف على "حسناء" حال وصولنا، رجالٌ آخرون يحملون جسدها، ونِسوة خلفهم بملابس بيضاء، وكنّ يبكينَ بصوتٍ مكتوم، نشيجٌ جماعي يتبع الجنازة. سرتُ، و"نكران" تجر خطواتها بجانبي، تَبِعْنا الجَمْعَ الذي استمر في التقدم ببطء لمسافة كيلو متر واحد تقريباً، ثم انعطفنا يسارًا بمحاذاة جدار منخفضٍ لمبنى لم نره عند وصولنا، ثم سرنا لنحو عشر دقائق، عندها رأيتُ، في شَفَق ما بقي من ضوء النهار، سوراً عالياً ببوابة ضخمة خلف المبنى المنخفض، حين اقتربنا قرأتُ عبارة مكتوبة بخط كبير: مقبرة جمعية أنصار الزواج. وتحتها عبارة مكتوبة بخط أصغر من الخط الذي يعلوه: "**أخرجوهم من قريتكم إنهم أناسٌ يتطهرون**". كانتْ العبارة الثانية مألوفةً بالنسبة إليَّ، لكنني لم أعد أتذكر أين سمعتُها أو قرأتُها. استمر الحشدُ المشيّع للجنازة يسيرُ بذاتِ الوتيرةِ حتى عبر البوابة، كانوا يتناوبون حمل جثمان "حسناء"، حين عبر الجميعُ البوابةَ عبرتُ خلفهم متأبطاً ذراع "نُكران"، وحين نظرتُ إليها بجانبي، كانت هي بدورها تنظر نحوي، فقالتْ بصوتٍ منخفضٍ وهي تبكي:

- المسكينة.

انتهتْ

بيلونا 22/ 10/ 2124م

حامد بن عبدالهادي بن عقيل

1974/07/21م

شاعر وناقد وروائي (السعودية)

صدر له:

قصيدتان للمغنّي | مرثيتان توغلان في دمي(1999) شِعر (بيروت: دار الجديد).

يوم الرّب العظيم (2005) شعر (بيروت: دار الحداثة).

يجرّد فوضاه (2009) شِعر (لندن: طوى للإعلام والنشر).

إله المسخ (2010) شِعر (لندن: طوى للإعلام والنشر).

الرواقي (2008) رواية (الإسكندرية: جدار للثقافة والنشر). طبعة ثانية (2009) (لندن: طوى للإعلام والنشر).

وادي نون (2023) رواية (الإسكندرية- مالمو: جدار للثقافة والنشر)، (جدة: دار ريادة).

فقه الفوضى (2005) دراسة نقدية تأويلية في رواية «الفردوس اليباب» لليلى الجُهني (القاهرة: شرقيات). طبعة ثانية (2006) (بيروت: دار الكنوز الأدبية). طبعة ثالثة (2022) (جدة: دار ريادة).

إله التدمير (2010) دراسة نفسية تأويلية في «الإرهابي20» لعبدالله ثابت. (لندن: طوى للإعلام والنشر). طبعة ثانية (2022) (جدة: دار ريادة).

عصر القارئ (2011) مقدمة في التأويلية. (لندن: طوى للإعلام والنشر). طبعة ثانية (2022) (جدة: دار ريادة).

مطرُ التجارب | دراسات سيميائية في الأدب العُماني (2024)، (جدة: دار ريادة للطباعة والنشر). (مالمو: دار جدار للثقافة والنشر).

سيرة افتراضية | **مسيح** (2006) (بيروت: دار الكنوز الأدبية).

سيرة افتراضية | **سبينوزا** (2007) (بيروت: دار الكنوز الأدبية).

سيرة افتراضية | **أماديوس** (2009) (حائل: نادي حائل).



REPUBLIC OF AHRIMAN

HAMED BIN AQEEL

جمهورية أهْرِيمان عمل سردي روائي يتخذ من الديستوبيا إطارا له، يقدمه حامد بن عقيل بعد روايتين سابقتين؛ الرواقي، ووادي نون. ويدور حول قيم جمهورية متخيلة كما يتصورها الكاتب في المستقبل. حيث يتخيل الكاتب أن القيم الجمهورية أو على الأقل قيم جمهوريته المتخيلة ستتغير إلى نقائضها، فتبدو مفردة «شريفة» لفظة نابية، وتعتبر الرشاوي عمل أخلاقي، وشعار «أكاذيب من أجل الوطن» شعار وطني يستحق الإشادة. إنها القيم الوطنية التي صيغت في دستور هذه الجمهورية المتخيلة.

هذه الجمهورية التي بين أيدي قرائها اليوم، تحاول تقديم أثر توظيف الطبقة السياسية للنخب في التلاعب وتزييف الحقائق وقلب الواقع إلى ضده وتسويق العماء الأخلاقي. فهي عمل يستشرف المستقبل المظلم لهذا الكوكب، إضافة إلى أنها تأتي لسدّ فراغ في المكتبة العربية يتمثل في ندرة مثل هذه الروايات الديستوبية، وقلة عدد كتابها.

Jidar
Culture & Publishing
9 781446 737194

للحصول على نسخة ورقية انقر: هنا